التربية

للفيلسوف سبنسر

ترجمه الى العربية

محمد السباعي

أحد محرري الجريدة

مطبعة الجريدة

بسراي البارودي بنيط العده سنة ١٩٠٨

تمهيد

ولد هربرت سبنسر بمدينة دربي قرب لندن في ٢٧ ابريل سنة ١٨٢٠ وتوفي بمدينة بريطن في ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٣ وهو في الرابعة والثمانين من عمره فخسر العالم بوفاته كوكب فلسفته الزاهر وروض حكمته الناضر كيف لا وهو الذي شهد له أعلام العلم وجها بذة النقد بانه امامهم وحامل لوائهم فقال فيه الاقتصادي الشهير جون ستيورت مل « انه لدائرة المعارف ومحيط العلوم » وأشار اليه الاستاذ داروں البعيد الذكر بقوله « فيلسوفنا الكبير » . وسماه ورديبتشر أحد نوابغ الاميركيين « ملك الفلاسفة في هذا العصر » وحار العلامة مكوش الأميركي في عظم عقله فقال « ان عقله لجبار العقول » ولو سردنا ما قيل في هذا الصدد لطال الحديث حتى مله القارئ

وقد أنشأ الفيلسوف المذكور عدة مؤلفات أهمها نظام فلسفته المسمى « نظاماً في الفلسفة التركيبية » وهو يتضمن خمسة أقسام أولها يدعى « المبادئ الاولية » ثم مؤلف في البيولوجيا (علم الحياة) وآخر في البسيكولوجيا (علم النفس) ورابع في السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والخامس في علم الاخلاق . والقطب الذي تدور عليه فلسفة سبنسر هو ان العالم جار على سنة الارتقاء من البسيط الى المركب ومن غير المحدد الى المحدد ومن المتماثل الى المتنوع . وان العالم سائر من حسن الى أحسن

وكان سبنسر كغيره من كبار الفلاسفة يرى ان أقوم السبل الى الصلاح والارتقاء هو الاهتداء بسراج الطبيعة واتباع سنتها ويرى ان أصل الشر والبلاء في الجور عن صراط الطبيعة المستقيم والعمى أو التعامي عن مصباحها المنير . وقد أنكر من نظام التعليم في بلاده ضلالاً عن المنهج الأسد وخبطاً واعتسافاً فالف كتابه

الشهير في فن التربية وهو الذي يحمل القارئ في كفه ترجمته . ولما وجدنا شبهاً قريباً بين ما أنكره سبنسر من نظام التعليم في بلاده و بين ما ننكره نحن من نظام التعليم في بلادنا رأينا من الخير ان ننقله الى العربية لنجني من ثمراته ما جنت الامة البريطانية وقراء الانكليزية عموماً وأهل اللغات التي ترجم اليها هذا الكتاب وهي معظم اللغات الاوربية . ولنا الامل الوطيد في ان فائدة الامة المصرية من آراء ذاك الفيلسوف الكبير لن تقل عن فائدة أعظم الامم انتفاعاً منه واغتباطاً به والله الموفق للصواب



أنفس المعارف

كانت الزينة أسبق عهداً في تاريخ البشر من الملبس حتى كان بعض المتوحشين يكابدون الألم الأشد في نقش أبشارهم بتصاوير الوشم ثم يبلغ من قلة احتفالهم بالثياب أنهم يصبرون على نار القيظ وزمهرير الشتاء لايبتغون منهما مخلصاً بالالتفات الى الملبس فكان هندي الاوربنوكو الذي لا يبالي براحة بدنه يكدح الاسبوعين ليبتاع صبغة يزخرف بها بشرته ثم تجد هندية هذه البلاد يهون عليها أن تترك كوخها عارية البدن ثم يعز عليها أن تبرز للملأ غير منقوشة الوجه . ذلك خلاف ما يبديه أمثال أولئك المتوحشين من تفضيل تافه السلع من خرز وحلي على الأنسجة النافعة , وقد خبرنا السياح عن أولئك المتوحشين ما يدل على استعلاء امر الزينة في اذهانهم واضمحلال امر المنفعة وذلك انهم متى احرزوا شيئاً من الأقمشة والثياب نكروها فعادت ذات منظر غريب مضحك كل ذلك طلباً للزينة . وأعجب من هذا ما اخبرنا به الكبتن سبيك عن خدمة الافريقيين من انهم لا يبرحون يختالون في ثيابهم الجلدية والجو صحو فاذا هطلت السماء طرحوا ثيابهم وراحوا عرايا يرتعدون فأحوال المتوحشين هذه تدل على ان الملبس انما تبع من الزينة فهو لها بمثابة الفرع للاصل فامّا احوالنا نحن فانما هي من مؤيدات هذا الدليل ومعززات ذلك البرهان فان أغلبنا ألهج بجودة النسيج وحسن التفصيل منه بدف الثوب وضمانته لراحة اعضائه أعني انه مؤثر للنظر على الفائدة

ولقد آثر الناس لعقولهم من مواد الحلية مثل ما آثروا لأبدانهم فرأوا ان أحق المعارف بالعناية وأولاها بالاتقان أقربها الى الزينة وأجدرها ان يزهى به تاركين ما قد يكون به عماد نفعهم وقوام عيشهم فكان جلّ ما يهتم به قدماء اليونان فن الموسيقى والشعر والبلاغة والفلسفة التي لم يكد يكون لها باعمال الحياة مساس حتى جاء سقراط واعظاً ومعلماً فأما المعارف المعينة على العيشة فلم تنل لديهم الا حظاً خسيساً وهي طبيعة لم ينفرد بها قدماء اليونان دوننا فلقد يدخل احدنا المدرسة ثم يغادرها وقد شحن ذهنه باشياء قلما يجد في سبيل الحياة محلاً لاستعمالها فمن هذه لغتا اليونان والرومان القديمتان فقد يمضي العمر ولا نجد من انفسنا حاجة اليها. وأي حاجة تكون للصانع أو التاجر أو الزارع الى هاتين اللغتين؟ ولولا التمسك بالعادات والانقياد لأهواء الجمهور لما فاز هاتان اللغتان منا بنصيب. فنحن بذلك نزخرف عقولنا كما نزخرف ثيابنا فنكون كهندي الاورينوكو الذي يصبغ وجهه لا لنفع يبتغيه وانما اتقاء الذم واللوم وجرياً على عادة بلاده

ولقد كان حظ الزينة في العصور الأول سواء عند الرجال والنساء فلما جاءت المدنية خضعت عناية الرجال بزخرف اللباس الى عنايتهم بجيئه مريحاً للأعضاء. وعنايتهم بالنافع من المعارف الى عنايتهم بالمزين المحلي. فاما لدى النساء فلم يبلغ التغير في هذين المذهبين مبلغه عند الرجال فان لبس الاشناف والخواتم والأساور وترطيل الشعر وترجيله وتضفيره واستعمال الصبغ وشدة التأنق في جعل اللباس سابياً للنواظر واحتمال المرأة تعب الاعضاء طلباً لموافقة الاهواء كل ذلك يثبت ان رغبة النساء في اعجاب الناس أعلى من رغبتهن في احراز الدفء والراحة. وكذلك في امر تعليمهن تجد في تغلب المعارف الكمالية على الضرورية برهاناً على هوان الفائدة وصغرها في جانب الاعجاب بالزخارف والملح

فكم من الوقت يصرف في تعلمهن الموسيقى والرقص والرسم فاذا سألت لم يتعلمن الألمانية او الايطالية قيل لك لانهما من كماليات السيدة ولعلك كنت تظن انهن يتعلمن هاتين اللغتين لقراءة ما كتب بهما من المؤلفات الجليلة . ثم تراهن يحفظن تواريخ موالد الملوك وأيام أعراسهم وأوقات وفياتهم مما لا يعود بأدنى فائدة فراراً من سخط الجمهور وطلباً لارضائه

ولكي تدرك سبب تقدم الزخارف على المنافع سواء فيما يتعلق بالعقل والجسم يجب عليك ان تعلم ان الحاجات الفردية لم تزل في كافة العصور خاضعة للحاجات الاجتماعية وان مجموع الافراد لم يزل منقاداً للحاجة الاجتماعية السائدة يتوجه أينما صرفته ولا تحسب أن لا حكومات الا حكومات الملوك والمجالس النيابية بل اعلم ان مع هذه حكومات غير معترف بها تنشأ في كافة الدوائر الاجتماعية حيث يلتمس كل فرد السيادة على من حوله حتى أصبح تنازع الرئاسة علنياً عاماً تشمر له الذيول ويبذل فيه أهم قوى الحياة ولم يأل الناس طلباً لتلك السيادة اما بجمع المال أو بتوخي الترف والرفه او بالتأنق في الملبس او بابراز المعارف واظهار الذكاء مما يحوك ذلك النسيج المكوّن من القيود المتنوعة الضابطة لحركات الهيئة الاجتماعية

ولم يكن حب الاستعلاء والتسلط على نفوس الغير قاصراً على المتوحش الذي يترنح معجباً بما زان بشرته من الوشم مزهواً بما حلى نطاقه من السلاح والا كان ذلك الحب قاصراً على تبيع النساء الذي يجعل من رونق لباسه ورقة ظرفه وغير ذلك من فضائله سلاحاً يصيد به ما يسنح له من ظباء الانس — بل كان حب التسلط سجية لم يبرأ منها الاديب ولا المؤرخ ولا الفيلسوف الذين يستخدمون معلوماتهم وملكاتهم في هذا الغرض وليس احدنا يقنع بتصريف

ملكاته وقواه في صمت ووقار بل لا ينفك احدنا ذا قلق وتشوف أو يلفت الانظار الى نفسه ليروعها بما تحلى به من الفضائل ارادة ان تنقاد له النفوس . وتذعن وهذا هو الذي يدعونا الى التعلم فعدنا لا نهتم بانفس المعارف وانما نهتم بما كان منها ضامناً لاستحسان العالم واجلاله لنا وتشريفه ايانا وما كان اجلب للنفوذ والمنزلة وما كان اشد روعة في النفوس واستخفافاً لها . وكما أن الانسان لا يهمه في حياته حقيقة نفسه وقدرها بل يهمه رأي الناس فيه ومقداره في نفوسهم كذلك لا يهمه في امر التعليم القيمة الجوهرية للمعارف كما يهمه ما لتلك المعارف من التأثيرات العرضية في نفوس الغير .

ولقد بلغ من ضعف شأن التعليم وانحطاطه عند الناس أنهم قلما يتناقشون على وجه الاطلاق في المفاضلة بين القيم النسبية للمعارف المختلفة . وهم في المناقشة في هذا الصدد (على نظام منسوق يؤدي الى نتائج واضحة) اشد تقصيراً كأنهم لا يجدون في أنفسهم حاجة الى تحديد القيم النسبية لمختلف المعارف فاذا رأيت أحدهم يميل عن هذا العلم الى ذاك ويعدل بابنه من هذا الى ذلك فانما يفعل فعله لا عن خبرة وفحص أدى الى اختيار انفس المعارف وافضلها وانما أتى ما أتاه اما مجاراة للعادة أو ميلاً مع هوى نفسه او عملاً بوهم كاذب وأهم ما يدور عليه كلامنا الآن هو تعيين القيم النسبية للمعارف ولا يصح لنا ان نكتفي بقولنا هذه المعرفة مفيدة وتلك عديمة الفائدة فانه ليس من موضوع يتوجه اليه الناس الا وله بعض القيمة فليس يعدم المشتغل بعلم الانساب مثلاً اطلاعاً على بعض العادات والاخلاق القديمة . ولا يفقد الذي يحفظ مقدار ما بين البلاد الشهيرة من المسافات فائدة في بعض اسفاره اذا جم له التجوال في بعض الانحاء . حتى الرجل الذي اصبح ولا عمل له الا استطلاع انباء الناس قد يحتاج

الى معلوماته لتقرير حقيقة فيما يتعلق بالانتقال الوراثي . غير انه لا ينكر انسان ان هذا اضاعة للوقت في غير حقه وانصراف عن النافع الجليل الى التافه الضئيل اذ لا نسبة بين النصب المحتمل في تحصيل مثل هذه المعارف الدنيئة و بين ثمراتها وفوائدها . وليس احد الا و يؤثر لابنه غير هذه المعارف التافهة فاذا كان الناس قد فطنوا الى القيمة النسبية في هذا الشأن واذعنوا لحكمها فلماذا لا يفطنون اليها و يذعنون لحكمها في كل حال . ولم نكن لنتشدد كل ذلك التشدد لو ان في اعمارنا من الفسحة ما يستغرق كافة المعارف ولكن الحياة قصيرة يزيدها قصراً كثرة الأشغال والهموم فوجب علينا ان نضن بأوقاتنا الا عن اجلّ الاعمال فائدة واكرمها جني . فقبل ان يصرف احدنا حيناً من الزمن في تحصيل معرفة لا يدعوه الى تحصيلها الا اقتفاء العادة ومجاراة اهواء الناس يجب عليه ان يتدبر فائدة هذه المعرفة ويوازن بينها و بين غيرها من فوائد المعارف الاخرى التي يفيدها الوقت بعينه

فليكن ما نهتم به في امر التعليم تقدير القيم النسبية للمعارف المختلفة وتمييز ما لا بد منه مما نحن واجدون منه بداً

اذا كان الغرض تقدير القيم النسبية للمعارف المختلفة كان أول ما يلزمنا تعيين مقياس للقيم . وما زال اهل كل معرفة يثبتون لها الفضل والقيمة باظهار مساسها بأحد اقسام الحياة فاذا سألت الرياضي او اللغوي او الطبيعي او الفيلسوف بيان ما لعلمه من الاثر في اعمال الحياة وما له من داعية الخير والسعادة نزع اليك بالحجة الناهضة وصدع بالبينة القاطعة . فاذا سألت الذي يجمع خسيس المعلومات كالمشتغل بجمع النقود والأوسمة من كل ضرب وصنف عن فائدتها وتأثيرها في حياة الانسان بهت وأفحم ولم يجد مناصاً من الاعتراف بعدم نفعها

وليعلم القارئ أن سؤالنا الاكبر هو كيف نعيش ولا نقصد الجهة المادية للعيشة بل عامة جهاتها ووجوهها فانما المسألة الكبرى التي تستوعب في اثنائها جميع المسائل الصغرى هي كيف يكون حسن التصرف في كافة مناحي الحياة تحت ظلال متنوّع الاحوال ومتلوّن الحوادث اعني كيف يكون حسن القيام على العقل والبدن والأشغال والعائلة وحسن السلوك مع العشراء والجمهور وحسن الانتفاع بما شرعت لنا الطبيعة من مناهل النعيم وصرف قوانا في اكبر الاشياء عائدة واجلها حاصلاً او بعبارة اخرى كيف نعيش اكمل عيشة ولما كان هذا اهم ما نحتاج الى معرفته وجب ان يكون كذلك اهم مقاصد التعليم واغراضه أي ان واجب التعليم وعمله انما هو اعداد انفسنا للعيشة الكاملة فاذا أردنا ان نحكم على احدى خطط التعليم فلا ينبغي ان نقطع فيها حكماً الا من جهة اعداد الطالب للعيشة الكاملة ومبلغها في سبيل هذا الاعداد وهذا يجب ان يكون مقياس قيم المعارف. ثم ينبغي ان يستعمل هذا المقياس في تقدير القيم باتقان وتثبت فاذا شرعنا في تربية الطفل جعلنا نصب أعيننا العيشة الكاملة وترفعنا عن اتباع العادة ومجاراة اهواء الناس وترفعنا كذلك عن جعل غرضنا من التعليم المنفعة المادية المجردة . وربما كان هذا من أشق الاعمال بل ربما تنقطع بنا الاسباب دون هذه الغاية . فحسبنا ان نقع من هذه الغاية على قرب، على ان في نتائج هذا العمل التي تكاد تجل عن التقدير خير جزاء من صعوبته ونصبه

ولنبدأ الآن بذكر الاعمال الرئيسة التي تتألف منها الحياة مرتبة بحسب اقدارها وهي (١) الاعمال المبذولة في صيانة النفس مباشرة (٢) الاعمال المبذولة في صيانة النفس بواسطة احراز المعاش (٣) الاعمال القائمة بتربية النسل (٤) الاعمال القائمة بحفظ العلاقات الصالحة من سياسية واجتماعية (٥) الاعمال

المختلفة التي تشغل اوقات الفراغ وتصرف في سبيل اللذات والشهوات

فاما كون هذا الترتيب صحيحاً مستقيما فذلك ما لا يحتاج الى دليل واي شيء يكون اهم من الاعمال التي يتخذها الانسان لصيانة نفسه وحفظ روحه ولو ان رجلاً اشبه الطفل جهلاً بالاشياء المحيطة به والحركات المكتنفة لشخصه لما شككنا في انه هالك لاول خروجه الى احدى الطرقات مهما بلغ علمه في غير ذلك من اعمال الحياة ولعل الجهل بأحد هذه الاعمال الأخرى اسلم عاقبة من الجهل بهذا العمل لذلك كانت المعارف المعينة على العمل المذكور رأس المعارف واولها

ولما كان العمل للرزق اعظم ما يهم الانسان بعد صيانة نفسه اذ لا يستطيع الانسان سبيلاً الى عيالة عياله الا بعد كفاية نفسه حق علينا ان نجعله ثاني العمل لصيانة النفس . ولما سبقت العائلات الحكومات وكان قوام الحكومات أفرادها ولم يكن قوام الأفراد حكوماتها وجب ان نقدم الأعمال القائمة بتربية النسل على الأعمال القائمة بصلاح علاقات الانسان الاجتماعية والسياسية او بعبارة اخرى حيث كان فضل الامة على حسب اخلاق افرادها ، وحيث كان اضمن الوسائل لاستقامة هذه الاخلاق انما هي تربية الأفراد وجب علينا ان نعترف بتقدم أمر العائلة على أمر الجماعة ولذلك يجب الاعتراف بفضل المعرفة الحادية بنا الى أول الامرين السائقة الى ثانيهما

وقديماً كان كل ما يلهج به المرء من الملاهي نتيجة اجتماع الخلق والتفاف البشر فان الشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل التي هي اشرف ما يصرف فيه الانسان أوقات فراغه وألذ ما يشتهي لترويح نفسه لا يتيسر ارتقاؤها الا باستحكام عرى الاجتماع واستمساك اواصر المعاشرة ولم يكن الامر في هذه

الملاهي قاصراً على استحالة رقيها الا مع امتداد عصر الاجتماع ووثاقة اركانه بل كانت مواضيع هـذه الملاهي وموادها انمـا يتكوّن غالبها من الافـكار والعواطف الاجتماعية لذلك كان حسن القيام بواجبات المجتمع الانساني مقدماً على العمل في سبيل هـذه الملاهي واحراز فنونها . ومن الوجهة التعليمية كان اعداد الطالب لأول الامرين مقدماً على اعداده للآخر

لذلك يجب ان ترتب اقسام التربية على النسق الآتي (١) التربية المعدة لصيانة النفس مباشرة (٢) المعدة لصيانة النفس بواسطة احراز المعاش (٣) المعدة لتربية النسل (٤) المعدة لحفظ العلاقات الاجتماعية والسياسية (٥) المعدة لفنون الملاهي . ولا نقول ان بعض هذه الاقسام منفصل عن بعضه انفصالاً تاماً وحاشانا ان ننكر أنها مشتبكة الأجزاء بحيث لو تعلم الانسان احدها لألمّ باطراف الباقي على انا نراها مع ذلك بينة الفواصل يطرد نسقها على الترتيب السالف الذكر اذ كان ما يوازيها من اقسام الحياة يجري كذلك على النسق المذكور

ولا شك في أن أمنية الناس من التعليم تمام أعداد الطالب في اقسام المعرفة التي ذكرناها ولما لم يكن ذلك في طاقة الانسان وجب علينا ان نبذل لكل قسم من جهدنا على حسب قيمته واستحقاقه فلا نؤثر اخدها بالانقطاع اليه وقصر انفسنا عليه واستنزاف ايامنا في معاناته وان كان من الاهمية بالمكان الأرفع بل لا ينبغي كذلك ان نقف جهدنا على اثنين من هذه العلوم او ثلاثة او أربعة ولكن يجدر بنا ان نشملها جميعاً بالتفاتنا ثم يكون اعظم الالتفات للأنفس قيمة وأصغر العناية للأرخص قدراً

ومع مراعاة ما قدمنا من تنظيم التعليم على النسق السالف والتقدير السابق يجب علينا ان لا نزال نذكر المسائل الآتية :

وذلك ان المعارف من جهة اقدارها تنقسم الى ثلاثة اقسام فأولها ما كان ذا قيمة ثابتة لا ينقص منها الدهر ولا الحوادث ، وثانيها ما يكون ذا قيمة يكون بقاؤها رهناً ببقاء شيء من الأشياء ، والثالث ما كان لا قيمة له الا في اصطلاح الهيئة الاجتماعية . فالاول كقواعد العلوم الطبيعية والثاني مثل الفائدة الجديدة التي نزدادها في لغتنا (الانكليزية) بتعلم اليونانية واللاتينية فان هذه الفائدة لا تدوم الا ريثما تدوم اللغة الانكليزية واما الثالث فمثل الأسماء المسرودة وأسماء السنين والأشهر والأيام والحوادث العديمة المعاني مع الثمرات التي يسميها اساتذة المدارس علم التاريخ كذباً وافتراء فان هذه الاشياء مما لا مساس له باعمال الانسان البتة وليس ما يدعو الى تعلمها الا اتقاء لوم الجمهور الذي يرى عدم معرفتها جهلاً ضلة منه وحماقة .

ولما كانت الحقائق التي تفيد البشر اجمع طول الدهر أهم من تلك التي تخص قسماً من الناس لمدة محدودة وهي كذلك أهم بكثير من الحقائق التي تخص قسماً من العالم مدة بقاء هوى من اهواء الجمهور حتى اذا ما انقضى ذلك الهوى سقطت قيمة الحقائق المذكورة وجب ان تقدم المعارف ذات القيم الثابتة على النوعين الآخرين .

واعلم فوق ذلك ان لكل معرفة تكتسب قيمتين قيمتها كحقيقة مستفادة وقيمتها كغذاء للذهن يقوم به صلاحه ويكمل نماؤه

فخلاصة ما تقدم ان الحياة منقسمة الى اعمال متسلسلة الاقدار تتوالى قيمها كما تتابع فرائد العقد . وان المعارف من جهة الفضل ثلاثة اقسام ذات فضل ثابت على العصور وبين كافة الامم وذات فضل زائل على القرون بيد انه خاص بشطر من الناس وذات فضل عرفي اصطلاحي لا حقيقة له وان لكل معرفة

مكتسبة قيمتين قيمة ترجع الى المعلومات المستفادة منها واخرى ترجع الى أثرها في الذهن

وقد كفينا جزأ عظيماً من مؤونة القيام بصيانة ارواحنا فاضطلعت الطبيعة بهذا العمل الجسيم الذي أجلته ان يعهد الى سوء تدبيرنا وخرقه فان الطفل في مهده يخفي وجهه اذا ابصر شخصاً غريباً فيبدو بذلك ما ركب فيه من غريزة حفظ النفس بالفرار من المجهول الذي ربما كان ضاراً فاذا نما ودرج فقاربه كلب غريب كان في انزعاجه وعدوه نحو أمه تتسابق صيحاته دليل واضح على نمو الغريزة المذكورة . هذا وان الطفل لا يبرح من ساعة الى اخرى يستفيد بنفسه تلك المعلومات التي تساعد على حفظ الروح فتراه يتعلم كيف يعدل ميزان جسمه وكيف يحاذر العثرات والمصادمات وكيف يتعرّف الشيء الصاب الذي يوجع مسه والشيء الراسخ الذى فيه متكأ ومعتمد والخوار الذي يهبط به وكيف يتعلم ان للأبر وخزات وللنار لدغات وغير ذلك من الفوائد التي تساعد على اجتناب المهالك والمصائب . فاذا ترعرع واشتد فانصرفت قواه في العدو والتسلق والوثوب وغير ذلك من الالعاب ذات الحذق والالعاب ذات الأيد . رأينا في هذه الحركات النامية للعضلات الشاحذة للحواس المنبهة للعقل اعداد الجسم لحسن التقلب بين ما يحدق به من الاشياء والحركات واعداده كذلك لملاقاة جسيم الاخطار التي لا تكاد تخلو منها حياة انسان واذ كان لنا من الطبيعة كل هذه العناية والحياطة رفع عنا اكثر مؤنة التربية الخاصة بصيانة النفس فلم يبق علينا الا اطلاق سبل الطبيعة في تعليمنا ما ذكرت من الفوائد وعدم الوقوف في وجهها كما يفعل بعض المربيات من منع بناتهن مباشرة الالعاب التي تطلبها طباعهن فيحرمنهن بذلك ما كن مستفيدات باللعب والمرح من القوة المعينة على أخطار الحياة

وليس ما ذكرنا جميع مايندرج في طي التربية المعدة لصيانة النفس مباشرة فانه فضلاً عن وقاية الجسم من الاشياء المحدقة والحركات المحيطة به يجب كذلك حفظه من طوارئ الامراض والموت التى تنشأ عن الاخلال بقانون الفيسيولوجيا (علم وظائف الاعضاء) ولا يكفي لاحراز العيشة الكاملة ان نحاذر الحتوف العاجلة والمهالك المفاجئة بل يجب كذلك اتقاء العاهات والمهالك البطيئة السريان التي تجلبها مخالفة القوانين الصحية على ان الطبيعة لم تبخل علينا في هذا الامر الاخير بالارشاد والهداية فقد جعلت من مشاعرنا الجسمية وحاجاتنا ادلاء على ما فيه صلاح اجسامنا وصحتها حتى ان الجوع والبرد والحر لتستدعي لاجسامنا من الخير ما لا نجد بداً من احضاره . ولو ان الناس يجيبون مطالب هذه الثلاثة وغيرها من الاحساسات قبل ان تجاوز من الشدة حدها لقلت المضار كثيراً فاذا أعقب الانسان كد البدن او الذهن استراحة ودعة واذا كانت الحرارة والجهد الناشئين من انسداد منافذ المكان يحملان الانسان على تفتيح هذه المنافذ لتجديد الهواء واذا كان احدنا لا يأكل حتى يجوع ولا يشرب حتى يعطش اذا كان ذلك كله قلّ ان ترى معدةً فاسدةً ولكن قد يبلغ من جهل الناس بقوانين الحياة ان يخفى عليهم ان مشاعرهم هي أدلاؤهم الطبيعية وان هذه المشاعر هي كذلك ادلاؤهم الناجحة الامينة ما لم يفسدوها بكثرة مخالفتهم اياها واذا ارتاب امرؤ في اهمية الاطلاع على قوانين الفيسيولوجيا وفي ان هذه القوانين من اسباب العيشة الكاملة فدعه يلتفت حوله وينظر هل يرى كثيراً من الناس قد نصفوا العمر او صاروا في شطره الاخير فبقوا سالمين من الامراض والعلل . فقلما نجد شيخاً هرماً لا يزال جيد الصحة وجمّ النشاط وكثيراً ما نبصر بين الشيوخ المنهوك القوى والمضعضع الاوصال وذا

العلة المزمنة وصاحب المرض الاليم ممن جلب لنفسه الداء باغفال الصغائر التي قد يعملها الانسان بلا كبير مؤونة فلا نبرح نجد صاحب القلب المعتل من حمى أصابته أثر تعرّض للهواء والفاسد البصر من الافراط في القراءة والمصاب بالعرج لالحاحه على ساقه في حين توجعه من ضرر لحقها والذي امضى أربع سنين يتقلب على فراش المرض لمواصلته كد الذهن بعد ما أعقبه ذلك ضرباناً في القلب . فانظر كيف يجمع فساد الصحة الى الوجع والضجر والكآبة وضياع الوقت والمال تعذر مزاولة الاعمال او استحالتها وكيف أن فساد الصحة يحدث في طباع المرء سرعة غضب وتهيج مزرية بحسن تدبير الاطفال وكيف انها تصير الانسان عاجزاً عن تأدية الواجبات الاجتماعية وكيف انها كذلك تجعل اللذات والملاهي اثقالاً فادحات فهل بقي بعد ذلك شك في أن الجرائم الجسمية التي قد يجنى علينا الآباء بعضها ونجر نحن باقيها اشد اضراراً بالعيشة الكاملة من كل ما سواها حتى انها قد تجعل حياة المرء خيبة وخساراً وثقلاً على ان الاصل في الحياة ان تكون نعمة لصاحبها ومتاعاً

وفضلاً عما ذكرنا من مضارّ مخالفة القوانين الصحية فان لها ضرر آخر وهو نقص العمر فانه لا صحة لما قد يتوهم البعض من ان الجسم المعتل يرجع مع الشفاء الى حالته الاصلية فانه لن تلمّ بالجسم علة ثم تزول دون ان تترك به اثراً باقياً وان كان لا يشعر به ابتداء ولا يعدم مثل هذا الأثر نقصاً في اعمارنا فاذا كثرت في الجسم أمثال هذا الاثر كان ذلك أتلف للصحة وأسرع الى الأجل واذا تذكرنا شدة قصور المتوسط لاعمار الناس عن بلوغ الغاية الممكنة للأجل علمنا عظم الخسارة ومتى حسبنا ما يفقد الناس بمخالفة قوانين الصحة ظهر لنا ان نصف الحياة الإنسانية ذاهب ضياعاً

لذلك كانت المعرفة التي تكفينا فقد هذا الضائع من الحياة رأس المعارف وأفضلها ولا نجزم بأن حصول هذه المعرفة لدينا قامع البتة لهذا الشر فانه قد تحصل لاحدنا هذه المعرفة ثم تدفعه الضرورة الى عدم العمل بها ومجاوزة حدود الصحة ومعلوم كذلك أنه قد يكفي المرء هذه الضرورة ولكن تتسلط عليه شهواته فتحدو به الى الخروج عن حدود الصحة فيشتري عاجل لذة خسيسة بآجل نعمة وفيرة على علم منه بما في ذلك من الغبن والوكس وعلى كل حال فان المعرفة الصحيحة اذا أنزلت من النفوس حق منزلتها لم تعدم أثراً شديداً ونفعاً جماً ثم لا بد من نشر القوانين الصحية اذا اريد ان يعمل بها ونتيجة القول أنه لما كانت الصحة التامة وآثارها من وفرة النشاط وفرط المرح هي اكبر مواد النعيم والهناء كانت التربية المعدة لاحرازها افضل من كل ما سواها ، لذلك نقول ان اهم اركان التعليم يجب ان يكون نظاماً وافياً من علم الفيسيولوجيا يحتوي على الحقائق الكبرى وتطبيقها على حركاتنا اليومية.

على أنه قد يدهشنا من الكثيرين عماهم أو تعاميهم عن هذا الحق بعد اسفار صبحه فتجد احدهم يخجل اذا وقع منه زلل في نطق لفظة من أسماء الخيالات المتعلقة بخرافات قدماء اليونان او الرومان ثم لا يستحي ان يكون جاهلاً بأعمال الجهاز الهضمي مثلاً أو بمقياس حركة النبض او كيفية انتفاخ الرئتين فما افظع تقدم الزخارف في تربيتنا على المنافع

ولا داعي للاحتفال في ابانة فضل المعارف المساعدة على حفظ الروح بواسطة افادة المعاش فان ذلك مما يسلم به العالم أجمع بل ربما عده جلّ الناس الغرض الوحيد للتربية على انهم مع هذا الاقرار بخطارة الموضوع لا يبحثون عن اي المعارف أجلب للمعاش وأضمن له وقد يعرفون للقراءة والكتابة والحساب

اقدارها في هذا الصدد ثم يقف علمهم عند هذا الحد فبينما تراهم يتقنون الكثير مما لا مساس له باعمالهم المعاشية اذا هم يطرحون شيئاً جماً مما له التصاق شديد بتلك الاعمال

وقد يعلم القارئ ان عامة الناس الا طبقات صغيرة جداً لا تخرج أعمالهم عن هذه الثلاثة وهي استخراج حاصلات الارض وتهيئتها وتوزيعها . وبماذا يبلغ الناس الكفاءة في هذه الاعمال الثلاثة ؟ انما يبلغون تلك الكفاءة باستعمال الطرق الملائمة لخواص حاصلات الارض أعني بالاطلاع الصحيح الواسع على خواصها الكيماوية والطبيعية والحيوية كما تستدعي الحالة أو بعبارة أخرى يبلغ الناس الكفاءة في الأعمال المذكورة بواسطة العلوم

ولنبدأ بذكر علم المنطق الذي هو عقلي محض والذي يستفيد به الانسان تعقلاً للامور وتبصراً في العواقب طوراً بالبديهة وتارة بالرّوية ويتلو هذا العلم علوم الرياضة فاما فرعها المختص بالعدد فهو المدبر لأزمة الاعمال والمصرف لأعنتها سواء كانت هذه الأعمال مما يختص بتقدير المقادير او مسائل البيع والشراء او تصفية الحساب ولا حاجة بنا الى إقامة الدليل على فضل هذا الفرع المختص بالعدد

فاما مسائل البناء والتركيب فانها تحتاج الى الفرع الاخص من علوم الرياضة فهذا النجار ورافع الجسور يستعينان على اعمالهما بقوانين العلائق المسافية. كذلك المساح الذي يزرع الارض والمهندس الذي يبدع صورة المنزل قبل بنائه والبناء الذي يضع القواعد والنحات الذي ينعم نحت الحجارة ويجيد تقديرها وغيرهم من العمال الذين يكملون مرافق المنزل ويتمون آلاته كلهم يعملون بالقوانين الهندسية . كذلك صناعة السكك الحديدية تدور على محور الهندسة

التي تكون ايضاً قوام الأعمال الخاصة بالمواني ومستودعات السفن وخلافها من أشغال المباني التي تستغرق الشواطئ وتنتثر على وجوه البلاد وأشغال المعادن (المناجم) التي تنفسح في بطون الارض . ولقد استفاضت فوائد الهندسة حتى تناولت الزارع الذي اصبح يستعين بها على بعض اموره

ولينظر القارئ الآن الى العلوم التي هي حسية وعقلية معاً اعني العلوم الحسية العقلية فان نجاح الصناعات الحديثة رهين باستعمال ابسط هـذه العلوم وهو علم الميكانيكا فانما نحتاج في جميع حاصلاتنا الى الآلات، والآلات كما تعلم لا تقوم الا بهذا العلم . فهذا البسكويت الذي تأكله اذا استقريت تاريخه علمت انه تقلب بين أعمـال شتى كان للميكانيكا حظ وافر في اصدارها فانما حرثت الارض التي انبتت قمحه بمحاريث قد صنعت بواسطة الآلات والآلات كما قدمنا من صنع الميكانيكا ثم كان حصد القمح ودراسه وطحنه وتحويله بسكويتاً بواسطة الآلات كذلك . وهـذه غرفتك التي تحتويك اذا كانت جديدة فربما قد صنعت حجارتها بواسطة الآلات وقدر خشب ارضها ونعم بواسطة الآلات . والنضد والكرسي والبساط والستائر كل هـذه نتائج الآلات ثم ثيابك سواء موشية او ساذجة ؟ ألم تنسج بها بل ربما خيطت بالآلات. والكتاب الذي بيدك ألم تصنع اوراقه ويجلد بالآلات . ثم انظر الى مساس الآلات باعمال التجارة والنقل والتوزيع في انحاء البر والبحر ألا ترى ان نجاح هـذه الاعمال رهن بان تخدمها قواعد الميكانيكا حتى ان المهندس الذي يخطأ تقدير قوى المواد التي يؤلف منها جسراً يجيئ جسره ملياً بالكسر في حين ما . ثم لا يطيق صاحب الآلة الجيدة لصاحب الآلة الرديئة مزاحمة ولا مطاولة . كذلك يكون صاحب السفينة المبنية على القواعد الحديثة أبعد شاواً

وامضى نفاذاً في اعماق البحار من صاحب السفينة المشيدة على الطراز العتيق .
ولما كانت منزلة الامة بين غيرها انما تقاس بحذق افرادها ونشاطهم علمنا ان
حظ الامة وقف على مبلغها من علم الميكانيكا

فاذا انتقلنا من شطر هذا العلم (العقلي الحسي) الخاص بالقوى الكائنة بين
اجرام المادة الى شطره الخاص بالقوى الكائنة بين دقائق المادة افضينا الى
عدة منافع اخرى لهذا العلم وانما الآلة البخارية نتيجة القسم الخاص بالقوى الكائنة
بين دقائق المادة مقروناً الى القسم الاول وناهيك بفوائد الآلة البخارية التي
تغني وحدها عن الملايين من العمال . ومن القسم الاخير الفرع الخاص بقوانين
الحرارة، ولا تنس ما افادنا ذلك من اقتصاد الوقود في جملة صناعات وكيف أفادنا
ايضاً في امر النفخ استبدال النفس الحار بالنفس البارد وكيف أفادنا كيفية تهوية
المعادن (المناجم) وكيف كفانا غائلة الانفجار بارشاده ايانا الى اختراع مصباح
السلامة وكيف انه هدانا بواسطة الترمومتر الى تنظيم اشغالنا . ومن القسم المذكور
ايضاً الفرع الخاص بالنور فهذا قد أفاد الاخفش (القصير النظر) والهرم الكليل
البصر عيوناً جديدة صحيحة واعاننا بواسطة المنظار المعظم على استجلاء غوامض
الداء وكشف الزغل والتمويه ومكننا بواسطة المنار البحري من محاذرة الصخور
وامن الكسر والغرق . وكم ارواح واملاك كان للبوصلة الحظ في انقاذها والبوصلة
كما تعلم من نتائج المغناطيس والكهرباء ومن نتائج الكهرباء ايضاً الآلة الكهربائية
التي تسمى ايلكتروتيب (*Electrotype*) التي نفعت صناعات شتى. والتلغراف الذي
سيكون المنظم للاعمال التجارية والمصدر للحركات السياسية . وزد على ذلك فوائد
الطب الجمة التي اصبحت اسباب راحتنا ونعيمنا

فأما فوائد الكيمياء فاكثر وازيد فان صباغة الاقمشة ونقشها قلما تجيء

متقنة مجاذة حتى تحرى فيها القوانين الكيماوية . كذلك يجب تحرّي هذه القوانين سواء في سبك النحاس والصفيح والزنك والحديد والفضة وفي تصفية السكر وعمل الغاز وغلي الصابون وصناعة الرصاص والزجاج والخزف الصيني . والحقيقة انه قلما تجد الآن صناعة الا ولها بالكيمياء مساس حتى الزراعة قد لحقها ظل هذا العلم فعاد الزارع يفيد بقواعد الكيمياء خيراً كثيراً فاذا اضفت الى كل ما ذكرنا الآن فوائد هذا الفنّ في أمور شتى مثل صناعة الكبريت وتطهير مجاري الاوساخ وعمل الخبز بلا اختمار واستخراج الطيب والغالية من القاذورات والاذاء علمت ان فوائد الكيمياء تمس كافة صناعتنا وان العلم بها يلزم كل من كانت له بتلك الصناعات علاقة قريبة او بعيدة

ومن العلوم المنظورة علم الفلك الذي أُتيح صناعة الملاحة ولايخفى ما افادته هذه الصناعة من التجارة الاجنبية التي تقوّت جزأ عظيماً من امتنا وتمدنا بكثير من الضروريات وباغلب مواد الترف والملاذ

ومن العلوم المنظورة ايضاً علم الجولوجيا (طبقات الارض) وله فضل عظيم في فلاح الصناعات ويكفي في الاشارة الى فضل هذا العلم ان نذكر القارئ بفوائد الحديد الجمة والفحم الذي لا تكاد تنفد معادنه ونذكره كذلك بمنافع الكلية التي انشئت لدراسة المعادن والمجمع الخاص بعلم الجولوجيا .

ومن العلوم المنظورة ايضاً علم الحياة وهذا العلم وان خف مساسه بما نسميه الصناعات الا أنه شديد المساس بألزم الصناعات لنا واشدها ضرورة اعني صناعة الطعام . ولما كانت الزراعة لا بد ان تنطبق اعمالها على خواص الحياة النباتية والحيوانية تنج من ذلك أن العلم المتعلق بهذه الخواص هو بالبداهة أُساس الزراعة وقد قرر الزرّاع عدة حقائق عن الحياة النباتية والحيوانية بمجرد التجارب

قبل ان يوضع علم خاص بحياة النبات والحيوان فمن هذه الحقائق ملائمة انواع من السباخ لاصناف من النبات وان زراعة بعض النبت في ارض مخصوصة يذهب صلاحيتها لنوع آخر من النبت وان الخيل لا تجيد العمل مع خفة الغذاء ومن مثل هذه الحقائق التي لا يبرح الزارع يستفيدها كل يوم تتألف معلوماته عن الحياة النباتية والحيوانية وعلى مقدارها يكون نجاحه . ولما كانت هذه المعلومات على قلتها وغموضها وصغر شأنها هي جد لازمة للزارع فما ظنك بأهمية هـذه الحقائق اذا صارت كثيرة واضحة جليلة على ان علم الحيوان والنبات قد بلغ في هذه الايام مبلغاً عاد على الزارع بالنعم الجزيلة الجمة

ومثال ذلك ما أفاد العلم المذكور حديثاً من ان نقص الحرارة ينقص من البدن فلا يجبر ذلك النقص الا بزيادة الغذاء فينتج من ذلك ان توفير الحرارة على الجسم توفير كذلك لمادته فلا يحتاج الى زيادة في الغـذاء ولهذه الحقيقة حظ كبير في تسمين الأنعام وتوفير العلف . واليك مثل آخر وذلك ان تنويع الاطعمة نام للجسد ومسهل كذلك للهضم

وآخر العلوم التي تمس الصناعات هو علم الهيئة الاجتماعية وطلاب هـذا العلم هم الذين يهتمون بأحوال الاسواق المالية ويتساءلون عن الاسعار الحاضرة ويتناقشون في مسائل الحاصلات الزراعية وغيرها كالقطن والغـلال والسكر والصوف والحرير ويتفحصون الدلائل ليستجلوا من غرائب الأمور ما يهديهم في أعمالهم .

لذلك كانت معرفة بعض العلوم لازمة لكل من كان مشتغلا باستخراج مواد العالم واستبدال بعضها ببعض (أعني المقايضة والتجارة) وتوزيعها ومقدار نجاح المشتغل باحدى هذه الاعمال مترتب على مبلغه من واحـد من هذه العلوم او اكثر

لذلك وجب ان يتخذ لنفسه اساساً من العلم الموضوع ليبني عليه ما عساه يستفيد عند مزاولة عمله ولأن العلم الموضوع ذا القواعد الموضحة المكتسبة بالتعقل والتفهم والحجة والسبب خير من المعلومات المستفادة بالتجارب فقد نسمع احياناً أن أناساً كثيراً تساهموا في حفر معدن فحم فصادفوا خساراً كبيرا ولو كان لهم علم بطبقات الارض لاستدلوا ببعض العلائم على خلو البقعة التي اختاروها من الفحم فعدلوا عنها وصانوا اموالهم وطالما نجد من الناس من يحاولون اختراعات لو أن لهم بعض الاطلاع على العلم لتبينوا استحالتها .

فانظر كيف اطرحت المدارس أغلب العلوم التي هي الصق المعارف بأعمال الحياة فلولا ما يستفيده الرجل من مزاولة عمله بعد تركه المدارس باعتقاد انها كمل التعلم لتعطلت صناعتنا التي ما كانت لتوجد لنا لولا المعلومات التي لا تزال تزداد وتترا كم على مر السنين بغير أسباب رسمية ولو ان الناس لم يتعلموا غير ما تلقوه في المدارس لبقيت انكلترا على حالتها في القرون الوسطى أعني عصور الالتزام وليس لتعليم المدارس ادنى فضل في تلك العلوم التي امكننا بواسطتها تذليل الطبيعة واستخدامها حتى أصبح العامل الحقير يتمتع بما لم تنله اعاظم الملوك قبل وقصارى القول ان المعارف الحية التي غذتنا بمواد القوة والحياة انما هي معارف نشأت ونمت في زوايا البلاد واعفالها الخاملة الخفية بيد أن المدارس تقضي الزمن في تلاوة الخرافات والكلمات الميتة .

ونذكر الآن ثالث اقسام الاعمال الانسانية أعني تربية النسل وكفى برهاناً على شدة اهمال الناس هذا القسم أنه اذا أبادنا الدهر وعفى على عهدنا الجديد ان ثم نقب احد الذرية على آثارنا الكتابية فلم يعثر الا على مجموعة من الكتب الدراسية او لفائف من اوراق امتحاننا لادهشه ان لا يجد بين هذه

البقايا اقل دلالة على ان تلك الامة الغابرة مرّ بخاطرها ان تكون يوماً ما ذات خلف وولد وكأني بذلك الباحث يقول « حقاً ان هذه المعارف لما يلائم من عزم على البقاء عانساً (المسن الذي لم يتزوج) ولقد أرى آثارا تدل على شغف تلك الامة بتصانيف الامم البائدة وتآليف الامم المعاصرة (حتى كأنما اعوزها من مؤلفات ابناء بلادها ما يستاهل القراءة) ثم لا اجد كلمة في سبيل تربية النسل ولا احسب ان أمة ما يبلغ من جهلها ان تهمل احق الامور بالعناية او تصل من الحماقة الى هذا الحد فلا جرم ربما كانت هذه الآثار من بقايا بعض الكنائس التي لا حاجة لرهبانها وراهباتها الى ادنى ما يتعلق بامر الذرية »

أليس من العجيب ان نعلم حق العلم ان حياة النسل او موته وصلاح اخلاقه او فسادها يكون رهناً بحسن التربية او سوءها ثم لا نمد الطلبة الذين نعلم أنهم سيكونون آباء بكلمة واحدة في سبيل تربية الولد ان ذلك هو الداء العضال والمصاب الجلل أليس من البلاء ان يسلم امر النشء الجديد الى تصرف العادات السيئة والغرائز الخبيثة والوهم الكاذب واقتراحات المرضعات الجاهلات وآراء الجدات والامهات الغبيات . أإذا حاول انسان مهنة التجارة قبل ان يتعلم شيئاً من الحساب واستعمال الدفاتر أو أراد أحد ان يشتغل بصناعة الجراحة قبل دراسة علم التشريح اخذ منا العجب مأخذه وصحنا « مجنون وايم الله » ثم نبصر الآباء يتكلفون امراً عسراً شاقاً اعني تربية الولد دون ان يفقهوا من القواعد الجسمية والعقلية والاخلاقية مثقال ذرة ثم لا يدهشنا ذلك ولا يثير رحمتنا على أولئك الاطفال الابرياء الذين يذهبون ضحايا جهل الآباء وغرورهم أليس هذا كما قلت الداهية الدهياء والسوأة السوآء

وإذا شئت أن تعرف مقدار البلاء الذي يصيب النسل من جهل الآباء

بقوانين الحياة فانظر الى عشرات الالوف الذين يهلكون بذلك السبب وأضف اليهم مئات الالوف الذين يبقون ضعفاء موهونين والملايين الذين يبلغون الشبيبة ولم تبلغ ابدانهم من الصحة المبلغ المطلوب . فترى أحدهم يرسل ابنه في الثوب القصير عارى الساقين حتى يخمش البرد جلده فيعود وكانه لاحمراره في غلالة حمراء فياليت ذاك الاب درى ان هذا مؤثر في مستقبل حياة طفله اما بالمرض او بتعويق النمو او باضعاف القوى مما يترتب عليه تنغيص عيش الطفل في مستأنف عمره . ثم ترى من الآباء من يقيد اولاده بالوان مخصوصة من الطعام لا يتعدونها او يعطيهم من الماء كل ما ليس يكفيهم يفعل ذلك اتباعاً لبعض الآراء المأفونة ولن يخلو امر ما من آراء الجهال المدعين فيعود فعله بالضرر على صحة اولاده . هذا خلاف ما يفعله الآباء من منع اطفالهم اللعب والمرح الذين يبعثون اليه بطبائعهم وهي غريزة أودعها الله الطفل لخير يريده به وكانا يعلم ما يفيده اللعب من تنمية الاعضاء وتقويتها ولعلك سمعت بهذه القاعدة الشائعة وهي ان العضو ينمو ويقوى مع الحركة ويضؤل ويضعف مع التعطيل فاذا حاقت بالاولاد عواقب جهل الآباء قالوا هذا قضاء وقدر واسندوا المصيبة الى الله سبحانه وتعالى وظنوا ان هذه المضار تصيب اولادهم بلا سبب وهو ظن شائع في العالم او قالوا ان لهذه المضار اسباب سماوية وعلل علوية وهذه غفلة وجهالة وما أسبابها الا الاخلال بقوانين الحياة الا ان تكون أحياناً عللاً وراثية فأي جريمة يجنيها الآباء اذ يتكفلون تربية ابنائهم فيقصرون في عملهم ألأم تقصير ويجنون على اولادهم وعلى ذرية اولادهم المرض والضعف والضنى والوجع والضجر والحزن والشقاء والموت .

وليس جهل الآباء وعاقبته في شأن التربية الاخلاقية باقل منها في امر

التربية البدنية فانظر الى الزوجة الصغيرة الحديثة العهد بزمن الدراسة كيف يكون تخبطها وتعسفها اذا رزقها الله طفلاً ولا عجب في ذلك فقد قضت في المدرسة حيناً من الدهر لم تشتغل الا بسفاسف قليلة الجداء فاما ملكاتها الخاصة بالتبصر والتدبر فاهملت اغلب الاهمال حتى لم يخطر بذهن الاساتذة ان يمدوها بفكرة واحدة فيما يتعلق بتربية الولد لا ولا صادفت الفتاة اثناء الدراسة من المعارف النامية للذهن المقوية للعقل ما يعينها على حسن التصرف في امر الطفل على حين جهلها بعلوم التربية وحسب القائمين بتعليم البنات ان تصرف الفتاة زمن دراستها في تعلم الموسيقي وصناعة الخياطة والتطريز وقراءة القصص والتنزه مع اترابها وصواحبها ومتى أتقنت الغادة هذه الاشياء فعلى علوم التربية ذيل العفاء . هذه الفتاة تجد نفسها امام نفس جديدة متفتحة وهي اجهل الناس بما امامها من تلك المعضلة التي تصعب على فحول الفلاسفة . هذه الفتاة التي تتكلف علاج النفس الانسانية هي جد جاهلة بحركات تلك النفس وطبائع هذه الحركات واعمالها وفوائدها ومضارها حتى انها تتهم صالح هذه الحركات بالسوء وفاسدها بالخير ثم تراها لجهلها بتلك النفس التي تعالج تخطأ وجه الرشاد في مداواتها فتسيء من حيث تشعر انها تحسن ولو انها في حالات خطأها تترك الطفل وشأنه لكان اولى واصلح فهي في اغلب الاوقات تنهي الوليد عن العمل النافع الصالح فيكون صنعها ذلك مزراة بفائدة الوليد ونعيمه ومضرة بحلمها وحلمه ومفسدة لذات بينهما لما يحدث ذلك بين الاثنين من الجفاء والوحشة وبيان هذا انها اذا ارادت حمل طفلها على خلق من الاخلاق الطيبة اتخذت لذلك وسائل فاسدة ضارة فاما ان تستدرج الطفل الى الخلق المذكور بالرشوة او تكرهه عليه بالتهديد والوعيد او تسوقه اليه بان تبعث في نفسه شهوة للصيت والذكر وغراماً

بتملق الناس له ومدحهم اياه فلا تزيد بذلك على ان تغرس في نفس الوليد خلال لؤم وخسة وهي النفاق والجبن وحب الذات ثم هي اذا اوعدت الطفل عقاباً فاخلفت وعيدها وكانت مع ذلك تأمر غلامها بالصدق لم تزد على ان تعرض لعينه مثالاً في الكذب ووهن العزيمة وبينما هي لا تبرح توصي ولدها بضبط النفس وكتم الغيظ اذا هي تحتدم غضباً لاقل هفواته فتحل به من العقوبة مالا يستحق وفي هذا من سوء التدبير ما فيه . ولعلها قد غاب عنها البتة ان العقوبات الطبيعية هي خير العقاب واحكمه

ولولا ما يكون من تغلب عقل الولد متى كبر وبلغ رشده على الآثار السيئة الناشئة من سوء تدبير الام ولولا ان نفس الولد تتحول من طبعها حتى تظهر اخيراً في الصورة الاخلاقية لنفوس اهل جلدته وجنسه لفسدت اخلاق النسل كل مفسد

هذا وقد نرى في التربية العقلية من العسف والجور والاساءة ما نبصره في القسمين السالفين فانه ليس من احد الا ويسلم بأن لخواص الذهن وتنقلاته قوانين محدودة واذا كان ذلك فكيف يمكن الاخذ في تربية الطفل على حق دون ان نعرف هذه القوانين اما الآن وقد نرى كافة الآباء الا النادر واغلب المعلمين جاهلين كل الجهل بعلم النفس (*Psychology*) فلا جرم ان يصبح نظام التربية الحاضر فاسداً سواء في المادة والطريقة حتى اصبح المعلمون يمنعون الطلبة من المعارف ما تطلبه عقولهم لشدة حاجتها اليه ويكرهون في اذهانهم من المعلومات كل مكروهة ممقوتة ينفر منها الذهن لعدم حاجته اليها وأسوأ من ذلك ان المعلمين اذا استكرهوا الطلبة على مستنكر المعلومات اساءوا مع ذلك وضع تلك المعلومات وتنسيقها فقد يظن الآباء والمعلمون انه ليس للتعليم معنى اكثر من حمل الطلبة

على اكتساب المعلومات من صفحات الكتب فيلقون الكتب في ايدي اطفالهم ليرعوا منها في الوخيم الوبيل جاهلين وظيفة الكتب وانها انما يرجع اليها عند اعواز اقرب وسائل التعلم وهي تحصيل المعارف من مصادرها كأن يتعلم الانسان خواص الذهب مثلاً او الفضة ببحث احدها مشاهدة وسبكاً وتحليلا فاذا تعذر ذلك فالى الكتب مرجعنا حيث نشاهد الاشياء بأبصار غيرنا وكأن المعلمين قد غاب عنهم ذلك فهم يذهبون اول وهلة الى الكتب لتحصيل المعارف .على حين انهم بمرأى من مصادرها الاصلية ومعادنها الحقيقية وكأنما غاب عنهم ان ذهن الطفل بطبيعته متطلع الى المعلومات دائب في اكتسابها بفضل قوته مستغنياً عن معونة الغير فاؤلئك الاطفال يستفيدون كل يوم بأنفسهم من المعارف مالا نكاد نحصيه وكأنما غاب عن هؤلاء المعلمين ايضاً ان للطفل ملكة ملاحظة هي ابداً يقظة قلقة متوقدة الحركات وانهم لغفلتهم وجهلهم لا يزالون. يعملون في قدع تطلع هذه الملكة واخماد حركاتها بصرفهم ذهن الطفل عن ملاحظة الموجودات ومعاينة الكائنات الى الكتب والكراسات والاوراق مما ينبو عنه ذوق الطفل وكان اولى بهم ان يعملوا في زيادة ملكة الملاحظة حدة ونفاذاً وما ذلك الا ان الناس قد ولعوا برموز المعارف دون المعارف نفسها حتى اطرحوا الاصل وتشبثوا بالرمز وهو وهم باطل قد توارثته الاجيال فكان لها مضلة ومضرة ويا ليتهم يعلمون انه لا يصح ان تجعل الكتب ضمن مصادر المعارف حتى يستوفي الطفل كل المعلومات المتعلقة بجميع الامكنة التي يغشاها من منزل وطريق و بستان ومزرعة الى غير ذلك وهذا لسببين اولها ان اقتباس المعارف من معادنها بلا واسطة خير من اكتسابها بالواسطة والثاني ان فهم الطالب لالفاظ الكتب يكون بمقدار سابق خبرته للموجودات ثم زد على ذلك الضرر الناشئ من تلقين

الاطفال الصغار العلوم العقلية الدقيقة مثل قواعد النحو والبلاغة وفي ذلك ما فيه من حمل الذهن على الخطة الشاقة الكريهة واركابه ظهر كل عوصاء جامحة هذا خلاف ما يأتيه المعلمون من حرمان الطفل ما يلذ ويألف وتجريعه ما يبغض ويمج كتعليم الجغرافية السياسية بدلا من الجغرافية الطبيعية . ولا تنس المضار الناشئة من تقديم التعاريف والقواعد في التدريس على الجزئيات والتفاصيل ثم يتخلل جميع الاضرار التي ذكرنا آفة شديدة وهي حفظ كثير من الالفاظ دون فهم معانيها واذا تراكمت على الذهن كل هذه الآفات فلا عجب ان يصيبه الفساد ويأخذه كل داء نكر

ينتج مما قدمنا ان التربية البدنية والاخلاقية والعقلية مختلة فاسدة . ولعل أعظم أسباب فسادها هو جهل الآباء وأغلب المعلمين بالمعارف التي يتوقف عليها صلاح التربية . وأناس قد خلت اذهانهم وقلوبهم من كل فكرة وشعور فيما يتعلق بأمر التربية هل كان ينتظر لهم غير ما هم فيه من فساد الاخلاق والعقول والأبدان ؟ أيطلب أحدهم صناعة الخياطة أو التجارة فيسعى سعيه للاحاطة بقواعدها ثم يروم ان يكون ذا أولاد يربيهم فلا يرى أن يتعلم أدنى شيء مما عساه يعينه على ذلك العمل الكبير المؤونة الجسيم الخطر ؟ حقاً ان ذلك هو الجنون بعينه ؟ ارأيت لو أن أباً أفضى به الجهل بقوانين التربية الاخلاقية الى كسب عداوة اولاده فنفروا منه وهجروا منزله فكان ذلك سبباً الى شقائهم وخيبتهم، أما كان الاجدر به أن يعير علم الاخلاق ناحية من نفسه ولو استدعى ذلك عدم حفظه ديوان الشاعر اليوناني ايسكلاس ؟ واذا رأيت اماً تنوح على غلام ذهب ضحية الحمى وتكاد تجنّ كلما ذكرت قول الطبيب لها والغلام في سكرة الموت « هذه يا سيدتي عاقبة تحميل الغلام من اثقال الدراسة

ما لا يطيق » أإذا رأيت هذه الأم تنتهب أحشاؤها على غلامها الذاهب قتيل جهلها وقسوتها أتحسب أنها ستجد عزاءً وصبراً في اتقانها اللغة اللاتينية او الايطالية ؟

ومما قدمنا ينتج ان ثالث اعمال الحياة لا يستقيم بدون معرفة قوانين الحياة أعني القواعد الاوّلية في الفيسيولوجيا (علم وظائف الاعضاء) والبسيكولوجيا (علم النفس) ولعل هناك من يسخر بقولنا هذا . على أنا لا نكلف الآباء توغلاً في العلمين المذكورين واحاطة بخفاياهما ولو فعلنا ذلك لكان حمقاً منا وسخافةً وانما نوجب تعلم القواعد الاصلية الرئيسة . والخلاصة أن نموّ الطفل جسماً ونفساً لا يقوم الا بقوانين معينة وان اهمال هذه القوانين البتة سائق لا محالة الى الموت وانه ان لم يكثر من اتباع القوانين المذكورة فلن يسلم الجسم والنفس من الاضرار الخطيرة وانه لا يستطاع الوصول بالنفس والجسم الى اكمل حالات الصحة والعافية الا بتمام اتباع تلك القوانين . فهل يصح للآباء بعد كل هذا ان يفرطوا كل التفريط في أمور التربية ؟

قد صرنا الآن الى رابع أقسام الاعمال الانسانية أعني ما يجب على الانسان للمجتمع فلنتبين ما هي المعارف التي ترشح الرجل لأداء تلك الواجبات ولا احسب مدارسنا قد بالغت في اهمال تلك المعارف بعد علمنا انها تهتم بعلم التاريخ .

ولكن المعارف التي تتألف منها دروس التاريخ تكاد تكون عديمة الفائدة من حيث القدرة على ارشاد الطالب الى الواجبات الاجتماعية فقلما تجد من تلك الدروس التاريخية ما يوضح المبادئ الصحيحة للأعمال السياسية وكيف ينتظر أن يكون في سير الملوك (وهذا جل ما يتعلمه الطلبة) ايضاح للعلوم الاجتماعية

أم كيف يرجى أن يكون فيما يتلقاه الطلبة من أقاصيص الملوك ودسائس بطاناتهم ومكايد اعوانهم واحاديث ظلمهم وغصبهم وما شاكل ذلك كيف يرجى أن يكون في هذا مفسر لتدرج البلاد وترقيها. يتعلم الطلبة انه كان بين ملكين من الملوك شقاق أدى الى معركة عظيمة وان هذه أسماء قوّاد احد الجيشين وتلك أسماء قوّاد الآخر وان الجيش الاول نظم على هذا النسق والثاني رتب على ذاك النظام وان هذا تألف من كذا فرسان وكذا مشاة وكذا رماة وذلك تكون من كذا وكذا وانهما التقيا هكذا وافترقا كذلك وان أحدهما استعلى على الآخر في هذه الساعة وتضعضع في تلك وانه بعد سجال الحرب تمّ النصر لذلك الجيش ووقعت الهزيمة في ذاك وان هذا عدد القتلى في أحد الفريقين وذلك عدده في الاخرى فأي هذه التفاصيل يرجى ان يكون عوناً للطالب على فهم المبادئ الاجتماعية وأداء واجباتها وربما قال قائل « اتدري ما تقول يا هذا ؟ تلك وقائع شائقة وحوادث ممتعة وأقاصيص لاذة » فأقول نعم هي شائقة ممتعة لاذة ولكنها عديمة الفائدة قليلة الثمرة بل ربما كان لها قيمة كبيرة في نفس الغوي الذي اغرمه بها شهوة خادعة وكم أناس أضلتهم الاهواء الباطلة فأعظموا كل حقيرة تافهة منهم طلاب الآثار القديمة الذين يشترون الاحجار الخسيسة والخرق البالية بأوزانها من الذهب فهل يرى القارئ أن نجعل اذواق اولئك الضالين موازين لقيم الاشياء ؟ كلا واذا سلمنا بذلك سلمنا ايضاً بأن ولوع الناس ببعض المعارف التاريخية ليس حجة على فضل تلك المعارف وانه ينبغي لتقدير قيمتها ان نزن فائدتها ونقيس نفعها فهب ان أحداً جاءك فقال ان قطة جارك ولدت أفيكون لهذا الخبر فائدة فهو وان كان حقيقة الا انها حقيقة عديمة الفائدة — حقيقة لا تأثير لها في اعمال حياتك — حقيقة لا تعينك على ادراك كنه

الحياة الكاملة — اذا علمت ذلك فاجعل هذا المقياس مقياساً للمعارف التاريخية المعطاة في المدارس تحصل على عين النتيجة التي حصلت عليها في أمر القطة فهذه المعارف التاريخية عديمة النتائج ولذلك كانت حقائق لا تفيد في وضع قوانين للحياة ووضع القوانين للحياة هو أهم فوائد الحقائق

واغلب ما وضع المؤرخون خال من تلك المواد التي هي احق بان تدعى تاريخاً اعني ما يرجع الى ترقي الامم وتدرجها في سلم المدنية وقد ادرك المؤرخون ذلك حديثاً فاخذوا يهدون الينا ما يحق اهداؤه والسبب في ذلك انه لما كان الملك في العصور السالفة هو الفرد الذي كأنما قد اجتمع في شخصه العالم باسره وكان سائر الامة كالهباء المنثور او أحقر لذلك كانت شؤون الملك زينة التاريخ القديم وغرته وصدره المحلى وكانت احوال الامة منبوذة حيثما اتفق في زوايا التاريخ واركانه فلما انعكست الحال على الزمن فاصبحت الامة ذات الشأن الاعظم واضمحل امر الملك وجه المؤرخون اهتمامهم الى رقي المجتمع وعادوا يبحثون عن اسباب نماء الامم وتقلب اطوارها

فما نحتاج اليه من هذه المباحث موضوع الحكومة وتكونها ومبادئها وعقائدها وآفاتها . ولا داعي الى الافاضة في تواريخ الاشخاص الذين دبروا ازمتها وافعالهم الشخصية ولكن البحث غير قاصر على الحكومة الكبرى بل شاملاً كافة فروعها وشعبها. ثم نحتاج كذلك الى شرح مفصل للحكومة الدينية وتكونها وسلطتها وعلاقاتها بالحكومة المدنية والشعائر والعقائد والافكار الدينية لا تلك التي يؤمن بها جهراً وتجحد سراً بل التي يعتقدها الضمير وتمعن اصولها في اعماق السريرة ثم نحتاج ايضاً معرفة ما لكل طبقة من السلطة على ما دونها ومظاهر تلك السلطة في الالقاب والتحيات والخطاب ثم نحتاج كذلك الى

معرفة العادات التي كانت تدبر حركات العيشة داخل المنزل وخارجه وفيها تلك العادات الخاصة بعلاقة الذكور والاناث وعلاقة الآباء والابناء وكذلك نحتاج الى معرفة الخرافات ما عظم منها وما حقر ثم يجيء بعد ذلك تفسير نظام الاشغال وانقسامها وتنظيم الصناعة والعلاقات بين المستخدم والمستخدم ووسائل توزيع الحاصلات وسبل المواصلات وايضاح تاريخ الصناعات وارتقائها ثم يلي ذلك درس حالة الامة العقلية في اطوارها المختلفة من حيث مقدار التعليم ونعته والارتقاء في العلوم وكيفية التفكير الشائعة ومبلغ الامة من الفنون مثل البناء والتصوير والرسم والخياطة والموسيقى والشعر والاقاصيص الموضوعة ولا يهمل وضع وصف مفصل لعيشة الامة اليومية وطعامهم ومساكنهم وملاهيهم ثم يختم كل هذا بوصف الاخلاق العملية والاعتقادية لجميع طبقات الامة كما تبدو في عاداتهم ومبادئهم وامثالهم وافعالهم هذه هي الاشياء التي يلزم تفسيرها في ايجاز واختصار ليتمكن الانسان من فهم الائتلاف الكائن بين وجوه الحياة الاجتماعية وكيف تغيرت هذه الوجوه على الزمن في اطوار وتبدلت في نماء وتهذب حتى بلغت مبلغها الحالي. تلك هي المعارف التاريخية التي تنفع الطالب وتفيده وتدبر معاملاته ويصح ان تلقب تلك المعارف بعلم الاجتماع الوصفي

على ان تحصيل هذه المعارف التاريخية النافعة لا يكون عظيم الفائدة حتى يحرز الطالب مفتاح تلك المعارف وما مفتاحها الا علم الحياة وعلم النفس وهاك تفسير هذه الحقيقة فاعلم ان المجتمع مؤلف من افراد. وما عمل المجتمع الا مجموع أعمال الأفراد. لذلك كان الباحث عن أسباب المسائل الاجتماعية لا يجد تلك الأسباب الا في أعمال الأفراد ولكن أعمال الافراد تتوقف على قوانين طباعهم فلا يتأتى لك فهم تلك الأعمال حتى تفهم هاتيك القوانين ثم هذه

القوانين اذا أنعم ايضاحها علمت انها نتائج قوانين الجسم والنفس . لذلك كان علما الجسم والنفس ترجمان علوم الاجتماع أو كما قلنا قبل هما مفتاح تلك العلوم

ونتكلم بعد ذلك عن القسم الخامس من أعمال الحياة ذلك المشتمل على ملاهي الانسان وملاذه التي يملأ بها أوقات فراغه . والآن اذ فرغنا من النظر في أي التعاليم أحسن لوقاية النفس ثم لاحراز الرزق ثم لأداء الواجبات الأبوية ثم لتدبير المعاملات الاجتماعية والسياسية بقي علينا ان ننظر أي التعاليم أحسن لما يخرج عن هذه المسائل من أغراض الحياة مثل الاستمتاع بالمناظر الطبيعية والكتابات الادبية والفنون الجميلة على اختلاف أصنافها وعسى بعض الناس وقد رآنا نقدم على هذه المتعات ما هو ألصق بالمصالح البشرية وأمس لها مراعين في ترتيب أعمال الحياة قيمها الوقعية — يتهمنا بالميل الى اغفال هذه الممتعات التي هي أقل لزوماً من سائر أعمال الحياة . ولا أرى خطأ أكبر من تهمتنا بهذه التهمة . ونحن أشد الناس اعترافاً بقيمة الفنون الجميلة وملاذها واعتقادا بأن خلو الحياة من محاسن الشعر والموسيقى والرسم والتصوير وما تحرك هذه في النفس من العواطف يذهب بنصف لذة الحياة وفتنتها . وما أبعدنا من اعتداد هذه الفنون والمناعم قليلة الاهمية مع اعتقادنا بانه سيكون لها في مستقبل الحياة البشرية قسم اوفر وحظ اجزل . ومتى ذلت القوى الطبيعية للانسان فاستخدمها في صالحه ومتى كملت له وسائل استنتاج الحاصلات ومتى بلغ العمل منتهاه في السهولة والخفة وسرعة الانجاز ومتى نظمت التربية بحيث ترشح الانسان للكفاءات الضرورية في وقت اقصر فتزيد له اوقات الفراغ — حينئذ تنال المحاسن الطبيعية والفنية بحقها نصيباً اكبر من الذهن البشري

ولكن القول بان التهذيب في الفنون الجميلة هو من وسائل السعادة الانسانية

خلاف الزعم بانه من ضروريات هذه السعادة . ومهما بلغت اهمية التهذيب في الفنون الجميلة فلا بد ان ينزل ذاك التهذيب وراء التربية التي هي ألصق بالواجبات اليومية . وآداب اللغات وسائر الفنون الجميلة كما قدمنا ليست الا نتيجة الاسباب التي تقوم بها الحياة الفردية والاجتماعية ونحن نرى غارس الزهر يغرس النبات ابتغاء زهرته ولا يرى للجذور والورق قيمة سوى انها سبب الى طلوع الزهرة . ولكن بينما ترى الزهرة هي الغاية المنشودة والشيء الذي هو انفس قيمة من سواه واجل قدراً فان صاحب الغرس لا يزال مع ذلك يرى ان الجذور والورق اعظم فائدة واكثر اهمية لانه عليها يترتب طلوع الزهرة . فصاحب الغرس يبذل اقصى الجهد في القيام على غرسه وتعهده له حتى يكون غرسه صحيحاً زاكياً ويعلم انه من الحماقة ان تدفعه شدة حرصه على طلوع الزهرة الى اهمال الغرس. كذلك فن التشييد والتصوير والرسم والموسيقى والشعر يمكننا ان نسميها ازهار الحضارة ولكن مع الفرض بان هذه الفنون هي من النفاسة بحيث تفضل الحضارة التي هي اصلها ومنجمها (وهو مالا يكاد يقرر) فلا ينكر ان هذه الفنون لا تنمو وتستقيم الا بعد صلاح الحضارة واستقامتها وان التربية التي تؤدي الى حضارة صحيحة مستقيمة هي اهم التربية وافضلها

بناء على ذلك يظهر لنا جلياً فساد نظام تعليمنا الذي يهمل الغرس حرصاً على الزهرة ويصرفه الزخرف عن الجوهر . فبينا تراه لا يمدنا بالمعارف اللازمة لحفظ الارواح ثم لا يمدنا من المعارف اللازمة لاحراز الرزق الا بالنزر اليسير واكلا الجزء الاوفر من تلك المعارف لمساعي الانسان في مستقبل العمر يستفيده كيفما تشاء الظروف والحوادث — وبينا ترى ذاك التعليم لا يمدنا باقل المعارف اللازمة لحسن اداء الواجبات الابوية ثم لا يمدنا في سبيل الواجبات الاجتماعية

الا بكمية من المعارف الخارجة عن الموضوع مما لا مساس له بالاجتماعيات فاذا امدنا بمعارف اجتماعية اداها لنا مبهمة مغلقة — ترى التعليم المذكور مع كل هذا يغدق عليك المعارف الخاصة بالتزيين والزخرفة والصقل والتهذيب والتذهيب وما شابهها . ونحن مع تسليمنا بالفوائد الكمالية المستفادة من اتقان اللغات الحديثة بوسائل القراءة والحديث والسياحة لا نقر بان تلك الفوائد الكمالية جديرة ان يضحى في سبيلها ما كان يستفيده الطالب بدلها من معارف هي احق واوجب . وهب ان الاشتغال بنفائس التآليف الادبية يفيد الطالب صحة في التعبير ورشاقة في الانشاء فليست الصحة والرشاقة مما يوازن بالمعارف التي تدبر تربية الاطفال . ثم هب ان قراءة الشعر المكتوب باللغات المنقرضة تهذب الذوق فان تهذب الذوق لا يعادل الخبرة بقوانين الصحة . والكماليات على العموم والفنون الجميلة وكل ما يكون زهرة الحضارة يلزم ان يؤخر عن منزلة التعليم والنظام الذي تقوم عليه الحضارة نفسها . وبما ان هذه الكماليات لا تشغل من حياتنا الا اوقات الفراغ كذلك يجب ان لا تشغل من التعليم الا اوقات فراغه . وبعد معرفة مقدار الفنون الجميلة وتمييز درجتها والاعتراف بوجوب تعليمها منذ يشرع في تربية الطفل نبحث في اي المعارف افيد في هذا الصدد ايها اصلح للقسم الخامس من اعمال الحياة . والجواب عن هذه المسألة مثله عن المسائل السابقة . فان منتهى الرقي في جميع الصناعات على اختلاف اصنافها مؤسس على القواعد — ولولا القواعد العلمية لم يخرج للناس من المصنوعات ما هو غاية في الاتقان والجودة ولا وجد في الناس من يعجب بتلك الكتابات حق الاعجاب ويقدرها حق القدر . والقواعد العلمية — باعتبار معناها المتعارف الآن — ربما لم يحرزها المشاهير من ارباب الصناعات الجميلة ؛ ولكن هؤلاء

المشاهير كان لهم من دقة النظر ما يستلزم الاحاطة باصول العلم الابتدائية التي هي مبادئ العلم واحط درجاته . ثم ترى هؤلاء المشاهير قد تخلفوا بمسافات عن غاية الحذق والكمال لقلة اصولهم العلمية وقلة سدادها . وكون القواعد العلمية هي من اساس الصناعات الجميلة تثبت صحته متى ذكرنا ان المصنوعات الجميلة تمثل مظاهر ظاهرة او مما يجيش في ضمير الصانع ولذلك تكون جودة هذه المصنوعات على قدر مطابقتها لقوانين تلك المظاهر . ولا تتأتى هذه المطابقة الا اذا عرف الصانع القوانين المذكورة . واليك البرهان على ذلك

يجب على طلاب فن التصوير (صناعة التماثيل) أن يتعلموا مواقع العظام والعضلات البشرية من جسم الانسان ومواصلها وحركاتها . وهذا جزء من القواعد العلمية وقد أدركت ضرورته لمنع تلك الاغلاط التي يأتيها المصورون الجاهلون بالقواعد العلمية . ومن الضروري في هذا الصدد ايضاً شيء من العلم بالقواعد الميكانيكية ولما كانت تلك القواعد قلما يعلمها المصورون كثرت في التصوير الأغلاط الميكانيكية . مثال ذلك كل تمثال لا يضمن ثباته في مركزه و بقاؤه في وضعه الا اذا كان مسقط العمود النازل من مركز الثقل — أو كما يسميه علماء الهندسة الاتجاه — واقعاً على قاعدة الاعتماد . فترى أن الرجل الذي يقف الوقفة المسماة « وقفة الراحة » وهي أن يشد احدى رجليه ويرخي الاخرى لا بد أن يقع خط الاتجاه داخل قدم رجله المشدودة . ولكن المصورين الجاهلين بقانون التوازن كثيراً ما يخطئون تصوير تلك الوقفة حتى يقع خط الاتجاه بين القدمين والى أمثال تلك الأغلاط يسوقهم الجهل بقانون الاندفاع . فهذا تمثال ديسكوبولس الذي يتفانى الناس في استحسانه تراه موضوعاً بحيث لا مناص من انكبابه على وجهه متى رفع المسند

والحاجة في صناعة الرسم الى المعارف الفنية — التجريبية ان لم تكن العلمية — أبين وأظهر . فانظر الى سوء صناعة الصور الصينية وقلة اتقانها تجده ناشئاً من الغفلة عن قوانين المظاهر والاساءة في رسم المناظر الطولية والهوائية . ثم أي سبب تراه في رداءة ما يرسمه الصبي الا بعده من الحقيقة وخلافه للاصل وهو عيب ناشئ من الجهل بكيفيات تغير المناظر بتغير أحوال الأشياء . واذا أردت أن تدرك أن ارتقاء صناعة الرسم وقف على زيادة الخبرة بكيفية حدوث التأثيرات والآثار الطبيعية فانظر الى الكتب والموضوعات التي يدرسها طلاب هذا الفن أو الى انتقادات الكاتب راسكين أو انظر الى الصور التي كانت ترسم قبل ظهور أكبر الرسامين رفائيل . وأدق الملاحظات اذا هي لم تؤيد بالعلم كانت خليقة أن لا تعصمنا من الخطأ . وليس من رسام الا يسلم بأنه قلما يلاحظ اختلاف المظاهر . وهذا المستر ج . لويز على فطنته و بصيرته في فن الرسم قد ساق الجهل بالقواعد العلمية الى هذه الغلطة في احدى صوره وذلك أنه كان يرسم شعرية (نافذة ذات شباك أو باللغة العامية ذات شيش) فرسم ظل الشباك في الصورة على الحائط المقابل ولكنه جعل حدود هذا الظل خطوطاً محكمة الاستقامة . ولو انه عليم بقوانين الظل وهيئاته لما وقع في هذه الغلطة . وقد ساقه الجهل بالقواعد العلمية الرسام الشهير المستر روزتي الى الغلطة الآتية وهي انه لحظ انحلال الضوء الشمسي (الى ألوانه السبعة) على احدى هيئاته المخصوصة اذ تمر أضواء مخصوصة على بعض السطوح المغطاة بالشعر (بفتح الشين) ولما كان جاهلاً بقوانين الضوء أخطأ تقليد هذا الانحلال وأظهره في مرسوماته — على سطوح وفي أوضاع لا يتأتى ان يظهر فيها حقيقة .

ولعله ادعى للاستغراب اذا قلنا أن الموسيقى يحتاج الى القواعد العلمية ، ولكن

لا يلبث ذلك الاستغراب أن يزول متى بينا أن الموسيقى انما هو تمثيل راق خيالي للغة الشعور والعواطف . فان تنوعات الصوت على حسب اختلاف العواطف في النوع والقوة هي أصل ذلك الفن . ولا ينكر أن في هذه التنوعات الصوتية شيء من الصدفة ومخالفة القواعد — ولكنها على العموم خاضعة لبعض القوانين العامة للقوى البشرية وعلى حسب هذه القوانين تترتب معاني هذه التنوعات الصوتية . ولذلك لا تكون النغمات والمراجيع الموسيقية مؤثرة الا اذا انطبقت على هذه القوانين العامة . ومن الصعب جداً ايضاح هذه القضية ولكن حسبنا أن نضرب مثلاً هذه الأغاني التي أمست آفة المجالس فنقول أنها مما تحرمه قواعد العلم فأن هذه الأغاني تزري بالقواعد العلية وتعقها من حيث أنها توقع على نغمات الموسيقى أقوالاً ليست من قوة التأثير وتحريك العواطف بحيث تستدعي التعبير الموسيقي . نعم هذه الأغاني مزرية بالقواعد العلية من حيث أنها تستعير من النغمات الموسيقية ما ليس له أدنى نسبة الى الأقوال المنطوقة . وهب ان بعض هذه الأقوال يخرج في انغام مؤثرة فأنه لا يزال سيئاً لأنه تأثير كاذب . ومعنى كاذب أنه مخالف للقواعد العلية

وهذه الحقيقة بعينها مطردة في أمر الشعر . فان منشأ الشعر هي التعبيرات الطبيعية المختلفة التي تنبعث من شدة التأثر وتحرك العواطف . فقوافيه واستعاراته ومبالغاته انما هي صفات الحديث المفعل (الكلام المبعوث عن شعور ثائر) مبالغاً فيها لذلك لا يكون الشعر جيداً الا اذا طابق قوانين الحركة العصبية التي يجري عليها الحديث المنفعل . فيجب في هذه الصناعة التي انما هي جمع لصفات الحديث المنفعل مع تجسيم تلك الصفات وتشديدها أن تراعى قواعد التناسب وأن لا يعطى الكلام نصيبه من المزايا الشعرية جزافاً . فيجب أن يقلل من

الأساليب الشعرية متى كان الكلام أقل انفعالاً وكلما زاد الانفعال زيد من الأساليب المذكورة فاذا بلغ الانفعال منتهاه بلغت الأساليب غاية الكثرة . والاخلال بهذه القواعد مفضٍ الى الاضطراب والفساد وما لكثرة الاساءة في تلك الصناعة سبب الا قلة مراعاة القواعد المذكورة

وليس الأمر في اتقان الصناعات الجميلة قاصراً على فهم القوانين الخاصة بالمظاهر التي يصورها الصانع بل يجب على ذلك الصانع كذلك أن يفهم ما سيكون لمصنوعاته من الوقع والأثر في نفوس من تعرض عليهم — وهذا من مباحث علم النفس . والآثار التي تحدثها مصنوعات الصانع في النفوس تترتب على طباع الأذهان المعروضة عليها هذه المصنوعات وبما أن هناك صفات مشتركة بين جميع الأذهان فيلزم أن يقابل هذه الصفات المشتركة قواعد عامة تتوقف عليها الاجادة في الصناعات الجميلة . وهذه القواعد لا يتأتى للصانع اجادة فهمها وحسن اتباعها الا اذا أبصر كيف تنتج تلك القواعد من قوانين الذهن . وما سؤالك عن مقدار جودة صورة من الصور الا كسؤالك عما عسى أن تحدثه تلك الصورة من التأثيرات في أذهان الناظرين وعواطفهم . وسؤالك عن مقدار جودة الرواية التمثيلية وحسن تأليفها كسؤالك هل نظمت مواقفها بحيث تحسن الفات الحاضرين وتبرأ من كد طائفة ما من العواطف فوق الطاقة. كذلك في ترتيب الأقسام الرئيسة لقصيدة ما أو قصة خيالية وفي تركيب أي جملة يكون حسن التأثير متوقفاً على الحذق والبصر بحسن تصريف مدارك القارئ وحسن تحريك قواه الذهنية . فترى كل صانع يجمع أثناء مدة التعلم وما بعدها ذخراً وافراً من الملاحظات والآراء التي ينظم بها عمله . فتتبع أصول هذه الآراء تجدها انما نبتت من قواعد علم النفس . ولا يكون عمل

الصانع منطبقاً على تلك القواعد حتى يفهمها و يفهم نتائجها

ونحن براء من الاعتقاد بأن قواعد العلم وحدها تجعل الانسان صانعاً أو من القول بأن قوانين المظاهر الخارجية والنفسية تقوم مقام المدارك الطبيعية وانما الانسان يولد بفطرته شاعراً أو صانعاً ما فاذا لم يولد كذلك فليس في الكون ما يجعله الصانع المنشود وانما نقول ان الطبيعة في أي الصناعات والسليقة في أي الفنون لا تستغني عن المعارف المنظمة أعني قواعد العلم . السليقة تصنع شيئاً كثيراً ولكنها لا تصنع كل شيء . وحتى تقترن السليقة بالعلم لا تدرك الغاية القصوى

والقواعد العلمية كما أسلفنا ليس لزومها قاصراً على الاجادة في الصناعة بل هي كذلك لازمة لتبصير الانسان مزايا المصنوعات الفنية وادراك أسرارها . فما سبب التفاوت بين الطفل والرجل في ادراك محاسن الصور الا أن يكون معرفة الرجل بتلك الحقائق الطبيعية والحيوية التي تمثلها هذه الصور . ولماذا يفضل الرجل المهذب الرجل الجاف الجافي بكثير في فهم الشعر الحسن الا لأن الاول أصبح لفضل علمه بأعمال الحياة وأشيائها يرى في ذلك الشعر شيأ جماً قد غاب عن مدارك الغبي الجاهل . واذا ثبت أن فهم المصنوعات رهن بشيء من سابق الاطلاع على ما تمثله هذه المصنوعات ثبت كذلك أنه لا يكمل فهم المصنوعات المذكورة الا اذا كمل فهم الاشياء التي تمثلها . ولكل حقيقة تنشرها التحفة الفنية لذة جديدة في نفس الفاطن — وهي لذة تفوت الجاهل بتلك الحقيقة . وعلى قدر الحقائق التي يمثلها الصانع تكون الملكات التي يقرعها ذلك الصانع والمعاني التي ينبه اليها واللذة التي يبعثها ولكن لا سبيل الى الشعور بتلك اللذة حتى يعلم الناظر أو السامع أو القارئ الحقائق التي يمثلها الصانع . ومعرفة هذه الحقائق هي من العلم بالقواعد العلمية

ثم لا يفوت على أحد أن الامر في القواعد العلميـة (قواعد العلوم الطبيعية) ليس قاصراً على كونهـا من لوازم التصوير والرسم والموسيقى والشعر بل ان العلوم الطبيعية هي في ذاتها شعرية. وليس الرأي المستفيض الذي يقضي بأن الشعر والعلوم الطبيعية هما نقيضان الا خديعـة وتمويه . ولا ريب في أن قوة اليقـين وقوة الانفعال تنفي احداهما الاخرى حتى أن حدة القوى المفكرة تميت العواطف وحدة العواطف تميت القوى المفكرة فلذلك كانت هذه الحركات المختلفة متضادة متنافرة . ولكن حقائق العلوم الطبيعية ليست لذلك السبب مجردة من المزايا الشعرية ولا ان تعلم تلك العلوم مزرٍ بتمرين الخيال وحب البدائع الطبيعية والصناعية (أو كما يقول الغربيون حب الجميل) . كلا بل العلوم الطبيعية تفتح لنا كنوز الشعر حيث لا يبصر الجاهل بتلك العلوم الا خلاء خاوياً وقد رأينا المشتغلين بالمباحث العلمية الطبيعية أعظم ادراكاً للمزايا الشعرية المودعة في مباحثهم ومن غاص في مؤلفات هاج ميلر في فن الجيولوجيا أو قرأ كتابات المستر لويز عن السواحل البحرية علم أن العلوم الطبيعية أجدر أن توقد في الذهن ملكة الشعر من أن تخمدها ومن تأمل حياة غايتي (أكبر شعراء أوربا في الأعصر الحديثة . وهو الماني .) علم أن ملكة الشعر وملكة العلم الطبيعي قد تجتمعان عند الانسان في تعادل وتكافؤ . أليس من الحماقة بل شبيه بالكفر الاعتقاد بأنه كلما أنعم الانسان درس الطبيعة قل احترامه اياها . أتظن أن قطرة الماء التي لا تزيد في نظر الجاهل على كونها قطرة ماء تفقد شيئاً من جمالها في عين الطبيعي الذي يعلم أن أجزاء تلك القطرة مشدودة معاً بقوة لو أنها أطلقت بغتة لاحدثت وميضاً من البرق . وشظية الثلج التي لا يرى فيها الجاهل أكثر من أنها شظية ثلج الا تبعث خواطر أسمى وأجل في ذهن المبصر فيها

من خلال المجهر (ميكروسكوب . منظار معظم) الاشكال البلورية العجيبة المختلفة . والصخرة المستديرة ذات الخدوش هل تظن أنها تهيج من شاعرية الجاهل مثلما تهيج من شاعرية الجيولوجي (العالم بطبقات الارض) الذي يعلم أن تلك الصخرة كان يمر عليها سيل جارف منذ مليون عام . والحقيقة أن الذين لم يباشروا العلوم الطبيعية عميان عن أغاب الجمال والفتنة والسحر التي تحدق بهم ومن لم يجمع في شبابه النبات والحشرات لم يدرك نصف الجمال الذي تلبسه الحقول والرياض . ومن لم يلتمس المتحجرات لم يكد يدرك الاسرار الشعرية التي تحدق بالاماكن المشتملة على تلك المتحجرات . ومن اقام على ساحل البحر بلا مجهر ولا وعاء لحفظ الاسماك ينقصه ان يعرف اكبر ملاذ السواحل . ولقد يحزننا ان نرى الناس يعنون بالتوافه ثم لا يعنون باجل المظاهر — لا يعنون بفهم بناء السموات بل ينعمون الاهتمام بمناقشة ممقوتة تتعلق بدسائس ماري ملكة الاسكوت . ويبذلون اقصى العناية في انتقاد قصيدة يونانية ثم يمرون لا يعرجون على تلك القصيدة الجليلة التي نظمتها يد الله من طبقات الارض

فقد ثبت كذلك أن القواعد العلمية هي أصلح المرشحات لهذا القسم الخامس من أعمال الحياة . وثبت أن الفنون الجميلة مؤسسة بالضرورة على القواعد العلمية . وأن النجاح في هذه الفنون يتوقف على العلم بهذه القواعد . وكذلك ثبت أن حسن انتقاد المصنوعات وادراك أسرارها متوقف على العلم بتكوين الاشياء أعني بالعلوم الطبيعية . وأن هذه العلوم لا تقتصر على كونها من وسائل الفنون الجميلة على اختلاف أصنافها بل هذه العلوم هي في ذاتها — لمن أنعم النظر — ذات مزايا شعرية

قد نظرنا في قيم المعارف من حيث فوائدها في الارشاد . وننظر الآن

في قيمها النسبية من حيث تأثيرها في الأذهان . ونحن مضطرون الى الايجاز في بحث هذا الموضوع ولا حاجة والحمد لله الى الاطالة والاسهاب فاهتداؤنا الى معرفة خير المعارف لأحد الغرضين قد هدانا بطبيعة الحال الى خير المعارف لثانيهما . ولا جرم اذا اعتقدنا ان تحصيل المعارف التي هي أنفع لتنظيم أعمال الحياة يتضمن مع ذلك أنفع تمرين لتقوية الملكات الذهنية . ولو احتيج الى نوع من التربية لافادة المعارف ثم الى نوع آخر لتمرين الذهن لكان ذلك منافياً لما امتازت به الطبيعة والحكمة الالهية من حسن الاقتصاد والتوفير . فلم نزل في جميع انحاء الوجود نجد الملكات تستفيد قوة ونماء بتأدية الوظائف المفروض عليها أداؤها — لا بتأدية الأعمال الموضوعة (عكس الطبيعية) التي يخترعها الانسان لترشيح الذرية الى الوظائف المذكورة . فالهندي الاحمر يستفيد سرعة العدو وخفة الحركة اللتين يترتب عليهما براعته ونجاحه في الصيد والقنص بمطاردته الوحش . فتراه بمزاولة حركات حياته المتنوعة وأعمالها المختلفة يكتسب من توازن القوى الجسمية ما لم تكن لتفيده الالعاب الموضوعة . فان حذقه في مطاردة الوحش والعدو الذي استفاده بعد طول الدربة والملابسة يتضمن من دقة الادراك ما لا يفيده التمرين الموضوع الصناعي . وكذلك في جميع الاحوال . فمن المتوحش الساكن في جنوب افريقيا الذي أفاده نظر الاشياء البعيدة التي يطاردها أو يفر منها وتحقيق أشخاصها حدة بصر حتى عادت عينه مثل التلسكوب (المنظار المقرب) — الى الحاسب الذى مكنه عمله اليومي من جمع الأعداد الكثيرة ريثما تسرد له — نجد أن الغاية القصوى لملكة ما انما تبلغ بأداء تلك الواجبات التي تنوطها بها ظروف الحياة وأحوال المعيشة . ولا شك ذلك القانون صحيح كذلك في أمر التربية حتى تكون التربية التي

هي أرشد وأهدى كذلك هي أنمى للذهن وأشحذ وأمضى . واليك البرهان

من المزايا التي تنسب الى الانهماك في حفظ اللغات (واللغات كما هو معلوم من اكبر اركان برنامج التربية المتادة) ان ذلك الانهماك مقوّ للذاكرة. وقد يدعي ان تلك المزية من خاصيات الالفاظ . والحقيقة ان العلوم الطبيعية اوسع مجالاً لتمرين الذاكرة . فليس من الاعمال السهلة ان يذكر الطالب كل ما يعلم عن النظام الشمسي .واصعب من ذلك ذكر كل ما يعلم عن تركيب المجرة (البياض المعترض في السماء . وعدد المواد المركبة التي يكثرها علم الكيمياء يوماً فيوماً أكبر من أن يعدده الاكبار الاساتذة . ثم تذكر التركيبات والجاذبيات الجوهرية المختصة بتلك المواد المركبة لا يتأتى الا أن يقف الانسان عمره على دراسة الكيمياء . ثم في تعدد المظاهر التي تبديها الطبقات الارضية والمظاهر المخصوصة بما يكتن في تلك الطبقات من المتحجرات مادة عظيمة يلزم الطالب لمعرفتها أعوام كد واجتهاد . وفي كل قسم من الاقسام الرئيسة لعلم الطبيعة مثل الصوت والحرارة والضوء والكهرباء من الحقائق ما يرعب لكثرته من حدث نفسه بدراسة كل هذه الاقسام . فاذا انتقلنا الى العلوم الجوهرية زادت الحاجة الى جهد الذاكرة حتى أن التشريح البشري يضطر الطبيب الجديد الى استظهار تفاصيل هذا العلم ست مرات الى أن يرسخ اخيراً في ذاكرته . وقد أحصى علماء النبات ما ميزوه من أجناس النبات فوجدوه ٣٢٠ الف جنس بيد ان عدد اجناس الحيوان قد بلغت عند علماء الحيوان مليوني جنس وقد بلغ من كثرة تراكم الحقائق امام رجال العلم الطبيعي انهم اصبحوا لا يستطيعون مزاولة هذه الحقائق حتى يتقاسموها بينهم بدأً وعوداً الى ان صار الواحد منهم لا يتقن الا فرعاً يختص به ثم لا يعلم عن الفروع المتعلقة بفرعه

الا علماً عاماً وعن غير هـذه الفروع الا معرفة ابتدائية . فلا شك اذن في أن درس العـلوم الطبيعية ولو بمقدار معتدل يعطى مجالاً كافياً لتمرين الذاكرة . وأقل ما في الأمر ان درس هذه العلوم لا يقل في تقوية الذاكرة عن اللغات

ثم لاحظ أنه بينما العلم الطبيعي يكون على الاقل معادلاً للغات في تمرين الذاكرة ان لم يكن أفضل فان له فوق ذلك فضلا آخر وذلك أن في تعلم اللغات تكون العـلائق الكائنة بين الأفـكار المراد تثبيتها في الذهن مقابلة لحقائق هي في الغالب من المصادفات . أما في تحصيل العلم الطبيعي فان علاقات الأفـكار المراد تثبيتها في الذهن مقابلة لحقـائق معظمها لازم . ولا ريب أن علاقات الكلمات بمعانيها هي من وجهة واحدة طبيعية. وذلك ان تلك العلاقات يمكن تتبع تاريخها الى حد معين في الماضي وان كان يندر الاهتداء الى أصولها ومنابعها وأن قوانين هذا التاريخ تكون أحد فروع العلوم العقلية أعني علم الاشتقاق . وبما أنه ليس من المدعى في تحصيل اللغات على الطريقة المعتادة أن هذه العلاقات الطبيعية بين الألفـاظ ومعانيها يبحث عن أصولها وتترسم مواطئها وتوضح قوانينها يجب اذن التسليم بأنها علاقات عرضية . ولكن العلاقات التي يعطيها العلم الطبيعي هي علاقات سببية . وسيفهمها الطالب كذلك متى أجيـد تعليمه اياها . فبينما ترى اللغات تفهمنا العلاقات غير المعقولة تجـد العلم الطبيعي يفهمنا المعقولة . بينا تجد اللغات لا تمرن الا الذاكرة تجد العلم الطبيعي يمرن الذاكرة والفاهمة .

ثم لاحظ كذلك أن من مزايا العلم الطبيعي على اللغات في تمرين الذهن ان العلم الطبيعي يقوي ملكة الحكم وقد أحسن الاستاذ فارادي في خطبة له عن التربية العقلية اذ يقول أن أشيع العيوب العقلية هو ضعف ملكة الحكم .

قال ذاك الأستاذ « لم يقتصر المجتمع الانساني على جهله من حيث تربية ملكة الحكم حتى أضاف الى ذلك الجهل بأنه جاهل بذلك » والاستاذ المذكور ينسب هذا النقص الى فقد التربية العلمية وهذا ما لا ريب فيه فان الحكم الصحيح على الاشياء المحدقة بنا والحوادث والنتائج لا يتسنى الا بمعرفتنا كيف نترتب المظاهر المحيطة بنا بعضها على بعض. ومهما كان مبلغنا من معرفة اللغات فانه لا يكفل لنا بصحة الاستنتاج فيما يتعلق بالأسباب والنتائج ولا تستفاد ملكة الحكم الصحيح الا من التعوّد على استنتاج النتائج من المقدمات ثم تحقيق هذه النتائج بالملاحظة والتجربة . ومن فوائد العلم الطبيعي العظيمة أنه يستلزم تعويدنا ذلك الاستنتاج .

ولم يقف فضل العلم الطبيعي على غيره عند تمرين الذهن . بل هو أفضل المعارف كذلك من حيث الرياضة الاخلاقية . فاذا كان لتعلم اللغات تأثير فانما هو تأييد احترام آراء السلف والخضوع لها . اذ يقول الأستاذ أو المعجم (القاموس) للطالب « معاني هذه الألفاظ هي كذا وكذا » ويقول النحو « القاعدة في هذه المسألة هي كذا وكذا » فيقبل الطالب هذه الأقوال قضية مسلمة وقد اعتاد ذهنه الخضوع للتعليم الاستبدادي . ونتيجة ذلك ميل الى قبول كل ما تقرر بلا بحث. وعكس ذلك الصورة العقلية التي تنتج من تعلم العلم الطبيعي الذي لا يزال يرجع الطالب الى التفكير الذاتي . فان حقائق العلم الطبيعي لا يسلم بها بناء على أقوال الحجج (الرجال الذين تؤخذ أقوالهم حججاً) وحدها ولكنها مباحة للتجربة العامة . كلا بل ليسأل التلميذ أحيانا أن يصل بنفسه الى النتائج . ثم يعرض على نظره كل جزء من أجزاء الفحص ولا يطلب اليه التسليم بأي شيء دون أن يسلم بصحته ثم يزيد ثقته بقواه مطابقة نتائجه للحقيقة متى كان

استنتاجه صحيحاً . ومن ثم ينشأ ذاك الاستقلال الذي هو من أنفس عناصر الخلق . ولم تقف فوائد العلم الطبيعي الاخلاقية عند هذا .فان تعليم العلم المذكور متى أجري (كما هو الواجب) على منهج الفحص الحر كان تمريناً على المثابرة والاخلاص وقد قال الاستاذ تندال عن البحث الاستنتاجي أنه يحتاج جهداً وصبراً وقبولاً لما تجلو لنا الطبيعة في تواضع وصحة اعتقاد . وانما أول شروط النجاح هو القبول في اخلاص ورضاء باطراح الافكار السالفة — مهما كانت مألوفة — متى خالفت الحق . وكن واثقاً أن تلك الصفة الشريفة وهي التي لا يسمع عنها في الدنيا كثيراً ما يستشعرها المخلص في طلب العلم الطبيعي

ثم نقرر أخيراً (وسيعجب القارئ من هذا التقرير) أن للعلم الطبيعي فضلاً على المعارف المعتادة في مدارسنا من حيث التهذيب الديني .ولا نستعمل لفظتي طبيعي وديني هنا بالمعنى الضيق المعتاد بل باسمى واوسع معانيهما . والعلم الطبيعي مناقض لا شك للخرافات التي تغتصب اسم الدين . ولكن لا يناقض جوهر الدين الذي تلتف عليه هذه الخرافات وتخفيه . وكذلك يوجد في شيء كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة . ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات السطحية ورسب في أعماق الحقيقة براء من هذه الروح

قال الاستاذ هكسلي في ختام خطب له « العلم الطبيعي الصحيح والدين الصحيح توأمان يذهب انفصال أحدهما من الآخر بحياة الاثنين . وعلى قدر موافقة العلم للدين يكون نجاح العلم ونماؤه وكذلك الدين يكون نموه وفلاحه على قدر رسوخ أصوله في بطون العلم . ومآثر الفلاسفة الجليلة أجدر بان تكون ثمار الروح الدينية التي وجهت أذهانهم الى أقوم مناهج التفكير من ان تكون ثمار لتلك الاذهان ذاتها . ولعل الحقائق آثرت ان تلقي بمقالدها الى صبر هؤلاء

الفلاسفة وحبهم وصحة نياتهم وأثرتهم على ان تلقي بهذه المقالد الى ملكاتهم النظرية والاستدلالية

وليس العلم الطبيعي منافياً للدين بل المنافي للدين هو ترك ذاك العلم — هو الامتناع من دراسة المخلوقات المحيطة بنا . واليك مثلاً حقيراً . اذا كان أحد الكتاب لا تزال الناس تمدحه وتثني عليه بأبلغ عبارات الشكر والتمجيد واذا كانت مواضيع هذا الحمد والثناء هي حكمة مؤلفات ذاك الكاتب وجلالها وجمالها . واذا كان مادحو تلك المؤلفات يكتفون بالنظر الى ظواهرها فهم لم يفتحوها قط ليفهموا ما تحتويه.أي قيمة تكون لذاك الثناء والمدح ? هذه — اذا قست الأمور — حال البشر عموماً ازاء هذا الكون وصانعه . كلا بل الأمر أسوأ فلم تكتف الناس بالمرور على هذه الأشياء التي يصفونها بالعجب والجمال دون أن يتأملوها بل تراهم كثيراً ما يذمون الصارف بعض أوقاتهم في مشاهدة الطبيعة متهمين أياهم بتضييع الوقت في التوافه . بل يحتقرون من أظهر اهتماماً والتذاذاً بغرائب صنع الله . لذلك نكرر القول بأن مخالفة الدين ليست في دراسة العلم الطبيعي بل في ترك دراسته . فالتوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة . هي اعتراف صامت بنفاسة الاشياء التي تعاين وتدرس ثم بقدرة خالقها فليس التوجه للعلم تسبيحاً شفهياً بل هو تسبيح عملي . ليس هو باحترام مدعى بل احترام أثبتته تضحية الوقت والتفكير والعمل .

وليست مطابقة العلم الطبيعي للدين قاصرة على ذاك الوجه بل هما يتطابقان من حيث أن العلم يستوجب الاحترام الشديد والايمان المحض بتلك الحركات المنتظمة التي تصحب جميع الكائنات . فطالب العلم الطبيعي يؤمن بعد كثرة التجارب بالعلاقات الثابتة التي تربط جميع المظاهر الكونية — ويؤمن بالعلاقة

الثابتة بين السبب والمسبب — ويؤمن بلزوم النتائج الحسنة أو السيئة . فبدل الاعتقاد بالعقاب والثواب اللذين تدلى بهما الينا التقاليد والخرافات واللذين لا يبرح الانسان يؤمل ويخشى رغماً من عقوقه وعصيانه تجد طالب العلم الطبيعي يرى أن الله سبحانه وتعالى أودع عقابه وثوابه في نظام هذا العالم وأن مخالفة ذاك النظام مصحوبة أبداً بسوء العاقبة . نعم تجد طالب العلم الطبيعي يعلم أن القوانين الطبيعية التي خلقنا لنخضع لها هي قوانين محتومة نافعة . ويعلم أن اتباع تلك القوانين مصحوب أبداً بارتقاء العالم في معارج الكمال والسعادة . لذلك تجد طالب العلم الطبيعي لا يبرح يتشبث بالقوانين الطبيعية ويلتهب غضباً لاهمالها . فهو بتأييد مبادئ الكون الابدية ولزوم طاعتها يدل على صحة تدينه

وآخر وجوه المطابقة بين العلم الطبيعي والروح الدينية أن العلم هو المعرفة الوحيدة التي تعرفنا حقيقة أقدارنا وعلاقاتنا باسرار الوجود . فبينما يرينا العلم جميع ما يمكن معرفته يرينا كذلك الحدود التي لا يستطاع مجاوزتها ولا يعلم ماوراؤها . ولا يسلك العلم طريق الاستبداد في تفهيم الانسان استحالة ادراك السبب الاول (الله) ولكنه ينهج بنا الصراط الاوضح في تفهيمنا هذه الاستحالة بابلاغنا جميع انحاء تلك الحدود التي لا تستطاع أجازتها . والعلم كذلك يرينا (بكيفية لا تعادل ولا تبلغ) صغر العقل الانساني أزاء ذاك الذي يفوت العقل الانساني فبينا ترى العلم يقف أمام التقاليد وأراء الرجال وقفة المترفع المتكبر اذا به يضرع ويعنو امام ذاك الحجاب المنيع الذي يستر مالك الملك — فأكرم بذلك من كبر صحيح في تواضع صحيح . وليس غير طالب العلم المخلص (ولا نعني بذلك الذي لا يعرف الا حساب المسافات وتحليل المركبات . وجامع الأجناس . بل نعني ذاك الذي يتخذ أسافل الحقائق سلماً الى الاعالي

حتى يبلغ الحقيقة العليا) تقول ليس غير طالب العلم المخلص يعلم فرط تباعد القوة العامة (التي تتخذ الطبيعة والحياة والفكر مظاهرها) من العلم بل من الادراك الانساني

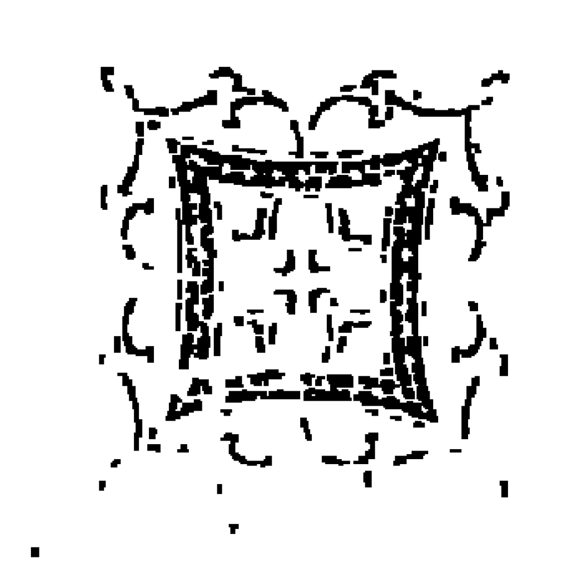
والخلاصة ان العلم الطبيعي هو أنفس المعارف من جهة الرياضة الذهنية ومن جهة الارشاد الى أكمل العيش . وتحصيل معاني الاشياء هو من جميع الوجوه خير من تحصيل معاني الالفاظ . ودراسة المظاهر المحيطة بي من حيث التربية الذهنية والاخلاقية والدينية أنفع بكثير من دراسة القواعد النحوية

فيكون جواب السؤال الذي بدأنا به وهو أي المعارف أنفس ؟ — يكون جواب ذلك : العلم الطبيعي . فانه الافضل من جميع الوجوه . بلى ان العلم الطبيعي لافضل المعارف من حيث المحافظة على الروح والحياة والصحة — من حيث الارتزاق — من حيث حسن القيام على الذرية — من حيث فهم الحياة القومية ماضيها وحاضرها مما لا يستطيع الانسان تدبير أعماله بدونه — من حيث الاجادة في صناعة المصنوعات الجميلة على اختلاف أصنافها وادراك محاسنها ومن حيث الرياضيات الذهنية والاخلاقية والدينية . فقد تسهل بفضل ما أعملناه من الفحص ذلك البحث وانحال ذاك المشكل الذي توهمناه في بادئ الامر غاية في الاعتياص والالتباك ولا لزوم لتقدير قيم الاعمال الانسانية المختلفة وقيم ما يلزم من المعارف لترشيحنا لتلك الاعمال اذ نجد ان دراسة العلم الطبيعي (في أعم معانيه) أفضل مرشح لجميع هذه الاعمال ولا لزوم للفصل بين ما ينسب من النفاسة والقدر للمعارف ذات القيمة العظيمة الاصطلاحية وما ينسب الى المعارف التي وان كانت أقل قدراً الا ان قدرها ليس اصطلاحياً بل حقيقياً اذ نجد ان كل معرفة ثبت لها الفضل الاكبر من جميع الوجوه لا بد ان تكون أفضل المعارف حقيقة فليس قدرها رهناً بآراء الناس ولكنه ثابت ثبات علاقة .

الانسان بالكون . فالعلم الطبيعي للزوم حقائقه وخلودها تجده يهم كافة البشر في عموم الازمنة . ولا يزال الناس سواء في الحاضر أو الغابر أو المستقبل يحتاجون لتنظيم أعمالهم الى فهم علم المعيشة بفروعه الثلاثة البدني والعقلي والاجتماعي ثم يحتاجون الى فهم سائر العلوم كمفاتيح لعلم المعيشة

ونحن نرى أن دراسة العلوم الطبيعية مع تقدمها على سائر الدراسات أهمية وفضلاً أقلها حظاً وأخسها نصيباً عند الناس في هذا الوقت الذي يفتخر فيه بارتقاء التربية فبينا تجد أن المدنية لم تكن لترقي لولا العلوم الطبيعية ترى هذه العلوم لا تكاد تنال في نظام التعليم الحالي (الذي يسمونه متمدناً) مكاناً مرضياً وبينا تجدنا نعترف بما أسدى الينا ارتقاء العلوم الطبيعية من تقويت الملايين حيث لم تكن الالوف تجد الكفاية ترى أن القليل من هؤلاء الملايين من يعترف بفضل تلك العلوم التي هي أسباب معاشهم . وبينا ترى المعرفة —المستمرة النماء— المبينة لخواص الاشياء وعلاقاتها (أعني العلوم الطبيعية) لم يقتصر فضلها على تصيير القبائل الرحالة أمماً ضخمة كثيفة حتى أمدت أفراد تلك الامم من أسباب الهناء واللذة بما لم يكن يخطر لاسلافهم العراة على بال أو يدخل في أذهانهم ترى هذه العلوم مع ذلك لا يفسح لها في نظام التعليم العالي الا مع التكره والتبرم والاستثقال . ولم نكن لولا ازدياد علمنا باطراد علائق الاشياء ونتائج المظاهر ووضع القوانين الثابتة ليطلق سراحنا من أغلال الخرافات الفاحشة . بل لولا العلوم الطبيعية لكنا لا نزال نعبد الاباطيل . ولكنا نتقرب الى المعابيد الشيطانية بذبح القرابين ومع كل هذا تجد أن العلوم الطبيعية التي أبدلتنا من الافكار السخيفة المأفونة نظراً بعيداً في عجائب الكون وروائعه تقابل من أهل الدين بالمعارضة والانكار والطعن

واذا شبهنا المعارف المختلفة بما جاء في بعض الحكم الشرقية لكان العلم الطبيعي مثل المرأة التي تراها مع خفائها في زوايا النسيان تنطوي على مزايا وفضائل مجهولة فهي الموكول اليها جميع أعمال المنزل ولم تنل المرافق والمناعم الا بفضل حذقها وعقلها واخلاصها . فهي مع قيامها بكفاية سائر العائلة وقضاء حوائجهم تجدها تنبذ وراء الظهور حتى يخلو الجو لاخواتها المتكبرات فيزهين أمام العالم بزخارفهن الحقيرة التافهة . ولكن لم تلبث الحال أن تتغير فبينا ترى هؤلاء الاخوات المتكبرات قد نبذن في زوايا الاهمال اذا بالعلم الطبيعي استوى على عرش الملك بماله من التربية العليا في القيمة والحسن



التربية العقلية

ان هناك علاقة متينة بين نظامات التربية المتعاقبة على ممر الازمان وبين ما يعاصرها من النظامات الاجتماعية اذ منشأ الجميع انما هو العقل الانساني فاذا رجعت البصر في تاريخ الامم رأيت ان تربية الاطفال كان يؤخذ فيها بالقسر والقهر أيام كانت الناس ترغم على الاديان والعقائد ارغاماً فلما انعكست الحال وأساغ المذهب البروتستانتي للراشدين النظر في مسائل الدين أحدث ذلك تغييراً في خطة التربية ليتطابق النظامان ويتوافقا فعادت التربية أسباباً تعرض بها وجوه العلم على عين الذهن لتنتقدها فتستجيد الخالص وتستهجن الزايف وكذلك لما كان حكم الاستبداد والجبروت نافذاً في الامم اذ تضرب الاعناق على سفاسف الذنوب كانت حال التربية من القسوة والغلظة تشاكل طبائع الحكومات فلم يكن اذ ذاك أسهل ولا أعم من اللطم والضرب بالسياط والعصي على أحقر الذنوب وأهونها فلما فشت الحرية السياسية فألغيت القوانين المقيدة لاعمال الافراد وخفف قانون العقوبات استوجب ذلك تعديلاً مشاكلاً في خطة التربية ففكت قيود الطفل ورجع في تدبيره الى وسائل غير العقوبات. وكذلك في أعصر الزهد والقشف اذ يقيس الناس فضل المرء وتقواه بمقدار ما يحرم نفسه المناعم والملاذ. كانت التربية في ذاك الوقت مقامة على دعائم الحرمان والمنع فلما ذهب الدهر بتلك العقائد وأصبح الناس لا يرون بأساً في التنعم بالحلال الطيب من الملاذ وقصرت أوقات الشغل وأطيلت أزمان الفراغ والاستراحة أدرك الآباء والاساتذة وجوب ارخاء شهوات الطفل ما لم تعد

حد الصواب واباحتهم ما تنزع اليه طباعهم من اللعب والمرح فقد رأيت المشابهة بين النظام الاجتماعي والتعليمي في العصور المختلفة

وهناك مشابهات أخرى سنوردها الآن وهي المشابهات الكائنة بين الاسباب التي أحدثت ما ذكرنا الآن من التغييرات ثم المشابهات الكائنة بين الوجوه المتعددة للرأي المتشعب الذي ساقت هذه التغييرات اليه ولقد كان منذ بضعة قرون توحد في العقائد سواء في الدينية أو السياسية أو التعليمية فكان الناس كلهم كاثوليك وملوكيين وارسطاليسيين. حتى لم يخطر بخاطر انسان في ذاك الحين ان يحدث تبديلاً في طريقة التعليم السائدة اذ ذاك وهي الطريقة النحوية الصرفية التي تخرّج عنها كل متخرج في تلك الاعصر. ثم كان ذلك العامل الفعال ألا وهو الولوع بتحقيق الحرية الشخصية الذي أدى الى النهضة البروتستانتية ثم أحدث بعد تعدداً في المذاهب الدينية مستمر الزيادة والذي أنشأ الاحزاب السياسية التي لا يزال يتولد عنها أحزاب جديدة كل عام والذي ساق الى الثورة العلمية ضد مذاهب العلم القديمة المسماة الثورة الباكونية (نسبة الى منشئها باكون الفيلسوف الانكليزي) التي أنتجت أفكاراً جديدة هذا الولوع بتحقيق الحرية الشخصية قد أدى كذلك الى تشعب في خطط التربية وتنوع في أساليب التعليم.

لما كانت التغيرات الدينية والسياسية والفلسفية والتعليمية انما هي نتائج ظاهرية لسبب داخلي بعينه وهو الحرص على الحرية الشخصية. أوشكت ان تتوارد في وقت واحد

وانه وان أنكر الكثيرون تعدد مذاهب التعليم فقد يرى المتبصر ان في ذلك التعدد سبيلاً الى اكتشاف المنهج الاوضح في فن التربية ومهما نعي

الناعون تشعب المذاهب الدينية فلا يسع أحداً انكار ما يكون في تنوع المشارب التعليمية من تسهيل البحث بتقسيم العمل ولو كانت الطريقة المثلى للتربية مما يملك لكان في الخروج عنها حمق وضرر . فاما وقد أصبحنا نلتمس تلك الطريقة المثلى فليس سبب أقرب الى بلوغها من توزيع العمل على جملة البحاثين الفاحصين أولي المذاهب المختلفة والمقاصد المتنوعة لكي يعمد كلٌّ عمده تحثه الغيرة على مذهبه ويبعثه الأمل في ادراك الغاية المنشودة

فاذا وضع الباحث خطته تخالط حقها باطل لم يلبث الباطل ان يكشف فيطرح ثم يؤخذ بالحق محضاً زلالاً فاذا اجتمعت الحقائق المختلفة المصادر ونبذت الغلطات قام لدينا بناء مشيد من الحق ومن نظر في منازل الرأي العام وهي ثلاثة اتفاق الجهال ثم اختلاف البحاث ثم اتفاق العلماء علم ان ثانيها أصل للثالث واذا صح ذلك وجب علينا ان نغتبط بما قد يسوء البعض من اختلاف المذاهب التعليمية ونثق ان في ذلك الاختلاف سبباً الى حسن المآل

وقد يحسن بنا الآن أن نتصفح ما وصل اليه أمر التربية لنعلم ما هجر من المذاهب والمناحي وما جدد حتى اذا قابلنا بين ما حدث من التغيرات المختلفة فرأيناها تنزع الى منزع واحد أخذنا في ذلك المنزع والتمسنا بفضل التجارب من الذرائع ما نهتدي به الى الغرض المطلوب ولنبدأ الآن قبل البحث في خطائر الموضوع بالمقابلة بين مذاهب التعليم القديمة والحديثة

ان قمع أحد العيوب يعقب في العادة بفشوّ ضده من النقص والعيب ولذلك ترى أن الزمن الذي كان يعنى فيه بخدمة الجسم وحده وتقويمه أعقب بعصر جعل فيه الاهتمام بالعقل وحده البغية الوحيدة لعامة الناس حتى طفق الآباء والاساتذة يضعون الكتب بين الاطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم الثلاث واعتقد

الناس ان اكتساب العلوم هو كل ما يحتاج اليه المرء ثم يجيء بعد ذلك زمن يعلم فيه الناس ان كلا المذهبين مجاوز القصد خارج عن السواء فيعدلون الى جادة الصواب و يميلون الى الصراط الاسدّ فيرون واجب الجسم عدل واجب العقل فيعملون لكليهما . وقد استنكر الناس في الزمن الحاضر خطة الحفظ عن ظاهر الغيب فشرعوا في تعليم جدول الضرب اثناء العمل وفي تعليم اللغات الاجنبية يسلك بالتلميذ طرقاً هي أشبه شيء بالسنة الطبيعية التي تعلم بها الطفل لغته الاصلية بلا معين ولا مرشد ويضمحل كذلك التعليم بواسطة القواعد ويعتاض من ذلك التعليم بالجزئيات اذ تعرض الجزئيات مقرونة بعضها الى بعض فيستنتج منها قانون كلي يرشد اليها وقد تعاب الخطة الاولى أعني خطة البدء بذكر القواعد من حيث انها سطحية تعقل التلميذ عن النفاذ الى أعماق العلم لاستبطان دخائله واستجلاء غوامضه فاما ان يعرض على التلميذ المعلومات الجزئية فيقارن بينها ويقابل ثم ينتزع منها قاعدة كلية تشملها فذلك هو التعليم الحق والخطة المثلى فان الحقائق لا تكون جمة الفائدة باقية المنفعة حتى يمتاحها الذهن من ينابيعها و يستثيرها من كنوزها . أما الحقائق التي تجيء بلا التماس ولا عناء فكالمال الحاصل عفواً كلاهما أوشك ضياعاً وأقرب زوالاً كما ان القواعد الملقاة في الذهن بددا المنبوذة فيه قدداً بدون ان تتفرع عن جزئيات تكون لها أصولاً فانما هي قواعد جديرة ان يذهب بها النسيان فتعود كأنها لم تكن . أما المواد التي يتناولها العقل قطعاً و يلتقمها لقماً فتلك مواد جديرة ان لا تبيد أبداً فبينا تجد التلميذ المتعلم على طريقة القاعدة في حيرة عند نسيان القاعدة تجد الغلام الذي تعلم على طريقة الجزئيات قادراً على حل المسألة الجديدة قدرته على حل القديمة متى تشا كلا ولقد تجد بين الذهن المشحون بالقواعد

والآخر الممتلئ بالجزئيات من المخالفة والمغايرة ما تجد بين كثيب الانقاض المشوشة وبين تلك الانقاض مرصوصة مرصوفة متماسكة متلاحمة ثم لا يكون فضل هذه الاجزاء قاصراً على تماسكها والتحامها بل تجمع الى ذلك مزية كبرى. وذلك انها تصبح للذهن عاملاً فعالاً يستخدم في الفحص والتدقيق والتفكير المطلق الحر والاستكشاف والاستطلاع مما يعجز عنه الذهن ذو القواعد

ولقد أفضى استبدال القواعد بالجزئيات وما يلزم ذلك من العدول عن تعليم المعاني المجردة قبل ان ترتسم في صحيفة الذهن تلك الصور المنتزعة عنها هذه المعاني قد أفضى ذلك الى تأجيل علوم كانت تلقى على التلاميذ في مبدأ دراستهم كعلوم النحو والصرف والبلاغة وقد قال المسيو مارسيل « ليست علوم النحو والصرف والبلاغة مما يبتدأ به في تعليم الاطفال ولكنها متممات ومكملات فانما هي قواعد تجمع من التمرين وما هي الا ثمرة الاستنتاج التي تجتنى بطول التأمل ومقابلة الحقائق »

وقصارى القول ان هذه العلوم هي أصول اللغة وفلسفتها ولم يك من سنة الطبيعة أبداً ان أمة من الامم بدأت في تكوين لغتها بوضع القواعد والقوانين وانما تخلق اللغة بادئ بدء فتتداول على الالسن وينظم منها الشعر وتؤلف الخطب أعصراً مديدة قبل أن يسنح بالخواطر أدنى فكرة في وضع قواعد للنحو أو الصرف أو البلاغة أو المنطق ولم تمتنع قدماء اليونان من المناظرة حتى يضع لهم ارسطاليس علم المنطق وقصارى القول انه لما كانت هذه العلوم مما يحصل بعد تكوّن اللغة وجب أن يتلقاها التلاميذ بعد تعلم اللغة .

وأهم ما ابتكر حديثاً من خطط التربية هي خطة ترسيخ ملكات المشاهدة فاقد فطن الناس بعد طول الغفلة الى أن هناك سراً ومعنى لما تبديه الاطفال .

من حب الاستطلاع باستعمال الحواس وعلموا أن توقد حركة الطفل وكثرة تلفته وطرحه البصر كل مطرح ليس من لعب ولا تعمد ضرر ولا هي حركات مجردة عن القصد وانما هي سبب طبيعي يتوصل به الطفل الى ادراك معلومات تكون أساً لمستقبل معلوماته فقد أدرك الناس معنى حكمة الفيلسوف باكون اذ يقول « ان الموجودات مصدر العلوم الطبيعية فان أس النجاح في تلك العلوم أن يحيط الانسان علماً بالاجسام وصفاتها وأعراضها والا فسدت أفهامه وكذبت نتائجه وخابت عملياته وانه متى أهمل شحذ الحواس لم يسلم التعليم من النقص والضعف والشك مما يستحيل علاجه » ولو تدبرنا الأمر لعلمنا ان تسديد النظر لم يزل قاعدة النجاح ودعامة الفوز وليست فائدة المشاهدة والنظر قاصرة على المصور والنباتي والحيواني وعالم الكيميا والطبيعة والفلك وما شاكلها والمهندس بل قد تتعدى هؤلاء الى الفيلسوف الذي من شأنه أن يشاهد ما غاب عن أبصار الدهماء من دقائق الاشياء ثم الى الشاعر الذي يمتاز عن غيره بابصاره من غوامض الكائنات ما خفي عن انظار الغير حتى اذا أورده في نظمه أدركه الناس فوقع من ألبابهم ألطف موقع . ومن أهم التغييرات التي حدثت في طرق التعليم هي ذلك الشغف الشديد بجعل الدرس لاذاً ساراً وهذا الشغف مبني على ما شوهد من أن التذاذ التليذ بالدرس أكبر ضامن لفهمه واكتسابه وان ارتياح الغلام لما يعرض عليه من المعلومات دليل على احتياج ذهنه في ذاك الحين الى تلك المعلومات المعروضة وذلك لامور ترجع الى انمائه وتنويره أما عدم ارتياح التليذ الى ما يلقى عليه فدليل على عدم استعداد ذهنه لتلقيه أو على سوء معرض الدرس ورداءة أسلوبه لذلك يبذل المعلم الآن جهده في التوفيق بين أميال الطلبة وبين ما يتلقون من الدروس ويستفرغ الوسع في اختيار ما يظنه لاذاً للغلام فيعرض في أعجب

أسلوب وأبدعه ثم يكون فرح التلميذ بالدرس واقباله عليه الشاهد الاصدق على نجاح الدرس حتى اذا بدت على التلميذ علائم الملل (ولا يعدم الانسان طوارئ الملل مهما لذّ له ما يباشر) وجب على الاستاذ أن يقطع الدرس ويصرف التلاميذ عنه لذلك كثر الآن عدد ما بين الدروس من الفسح واستحب التنزه في ضواحي المدن وأوصي بالخطب المستميلة والاغاني. فقد اضمحل الحرمان والزهد من خطط التعليم كما اضمحلا من الحياة

فما هي الصفة المشتركة بين هذه التغييرات ؟ أليست هذه الصفة هي زيادة تطابق بين طرق التعليم والسنن الطبيعية تطابقاً يظهر أثره فيما تقتضيه طرق التعليم لان قمع الاستبداد المطلق على الاطفال واطلاقهم يمرحون في أوائل أعمارهم كما يشاؤون مما تفرضه الطبيعة . ويظهر أيضاً أثر ما بين قوانين التعليم والنواميس الطبيعية من التطابق في استبدال الدروس المحفوظة غيباً بالدروس الشفهية الموضحة بالصور والاشكال والآلات. ويظهر أثره كذلك في استعاضة طرق الجزئيات بطرق القواعد حتى يحصل في ذهن التلميذ من الجزئيات ما يصح ان تبنى عليه القاعدة. ويظهر أثر المطابقة المذكورة أيضاً فيما لا يزال يبذل من السعي في تزيين الدروس وزخرفتها بافانين اللذة ليكون فيها مستمتع للاذهان ومنعم للقرائح وملهى للبصائر ومبهج للنفوس فان التذاذ المرء بما يباشر من عمل هو أنجع وسيلة لنجاحه يشهد بصدق ذلك ان اللذة التي يجدها الطفل في فحص ما يقع تحت نظره من الاشياء هي اكبر الاسباب الى فهمه كنه ما يفحص . لذلك لم يكن سعينا في تزيين الدروس الى الطفل وتحبيبه اليه الا تنفيذاً منا لاحكام الطبيعة وتوفيقاً بين قوانينها وأعمالنا

لذلك أصبحنا الآن نؤم تلك الحكم التي صرّح بها الاستاذ بيستالوزي

منذ زمن طويل وهي ان لا بد ان تجعل التربية مطابقة لاطوار العقل التي يتنقل بينها ، فان لتلك الاطوار ترتيباً وتناسقاً مطرداً وقد يبلغ العقل في كلٍّ منها حداً معلوماً فالواجب علينا ان ندرك مبلغ العقل في أي طور فنقدم له من المعلومات ما يناسبه في ذلك الطور ويلائمه ، وقد زاد لهج الاساتذة باتباع هـذا المذهب يدل على ذلك كثرة أقوالهم فيه قال المستر مارسيل « ان المذهب الطبيعي في التربية هو أكمل مذهب » وقال المستر وايز « أولى لك ان تترك الطفل يطلب من المعلومات ما يشاء فانه يكون في ذلك مؤتمراً باوامر ذهنه وهو أصدق من الغير » وأكبر ضوامن النجاح ان تكون الاساتذة خداماً لاذهان الاطفال يؤدون اليها ما تطلب وتحتاج

على ان ما ابتكر من وسائل التعليم لم ينتج من العواقب ما كان ينتظر منه فقد نجد من بين الاولاد من يبغضون تلك الوسائل ولا عجب في ذلك فان نجاح الوسيلة يتوقف على ذكاء الآخذ بها وقد قيل ان الآلة المحكمة قليلة الغناء في اليد الخرقاء ، وكذلك الوسيلة النافعة قليلة الفائدة عند المعلم الضعيف بل ربما كان حسن الوسيلة سبباً الى التلف على انه قد تنتج طرق التعليم المعتادة القليلة الفضل مع ضعاف المعلمين شيئاً من الفائدة فاما الطرق الكبيرة الفضل الجمة المناقب الجاعلة لكل غرض مسلكاً فلن يقدر على ركوبها الا كل جهبذ من الاساتذة صحيح الروية بديع الابتكار صادق النظر دقيق الفحص مما لا يجمعه الا النادر ما دامت صناعة التدريس صغيرة الشأن مستهاناً بها في هذه البلاد

ونحن الآن ذاكرون أهم القواعد التي هي أساس لما نرجو ان يرفع من منار التربيـة لنهتدي بها الى أشرف الغايات — أولاً . يجب في التربية ان يسار من الاسهل الى الاصعب ومن البسيط الى المركب

ولما كان العقل كسائر الاشياء النامية يتحول في نموه من هيئة بسيطة الى هيئة مركبة وجب ان يكون أسلوب التربية مجانساً لحالة العقل أي ان يبتدئ بسيطاً ثم يؤخذ في تركيبه شيئاً فشيئاً وكما ان هـذا القانون يجب ان يراعى عند تعليم الطفل علماً على حدته فكذلك يجب ان يراعى في تعليمه العلوم باعتبارها جسماً واحداً أي ان يبتدئ بتعليمه علماً ثم آخر ثم ثالثاً الخ وسبب ذلك ان ملكات العقل تكون في غرة عمر الرضيع كامنة نائمة ثم تهب واحدة واحدة ولا تزال كذلك حتى تبرز جميعاً حينئذ يبلغ الانسان أشده ولما كان الامر كذلك وجب ان يبدأ التعليم بالعلم فالعلم . ثم لا يزال ازدياد العلوم موافقاً لازدياد الملكات حتى توافي خاتمة العلوم خاتمة الملكات على قدر

(٢) وكذلك ترى نمو العقل كسائر النمو انما هو تحول من حالة انتشار وتبدد الى حالة انتظام وتناسق فهو لا يزال يرصف وينضد ثم لا يبلغ حد كماله الا عند بلوغ الرشد وعلى حسب مبلغه من النظام والدقة تكون درجته في السداد والاصابة .

لذلك كانت حركاته الاولية بعيدة من الاصابة مثل الحركات الاولية للبصر واللسان فكما ان العين الحديثة العهد بالدنيا لا تكاد تميز الا بين الضوء والظلمة فاذا مرّ عليها الزمن فاعتادت المناظر قوي تمييزها للاشياء حتى بلغت من حدة النظر بعد حين انها تقدر ان تفرق بين متشابه كل الالوان والاشكال التي يصعب التفريق بينها كذلك العقل بينا هو في أول أمره لا يكاد يميز الا بين الاشياء البعيدة الخلاف اذا هو قد عاد أخيراً يسهل عليه ادراك الفروق الخفية الغامضة ولتلك القاعدة المذكورة يجب ان تكون خطة التعليم مطابقة اذ يستحيل علينا ان ندخل في الذهن الناشئ الفكرة الدقيقة ولو لم يستحل ذلك

لما كان حميداً وقد يتمكن أي معلم من ادخال الالفاظ الضامنة لفكرة ما في ذهن الطفل ولكن ما للالفاظ والفكرة ؟ أيظن المعلم أن الطفل سيحصل بذلك على الفكرة المطلوبة فاذا اختبر الطفل وجده بين حالتين اما انه قد استظهر ألفاظاً لا يفهم لها معنى أو انه لم يدرك الا معنى معنى غامضاً ولن يستطيع الطفل أن يفهم معاني ألفاظ القواعد التي يتلقاها حتى يزداد خبرة بالاشياء التي ترجع اليها هذه الالفاظ وحتى تتضح الفروق الخفية المتشبهة وتبين الخواص الغامضة الملتبسة بطول المشاهدة وكثرة المباشرة لذلك وجب علينا أن نكتفي في مبدإ التعليم بتلقين الفكر البسيطة السهلة ثم يلزمنا مع ذلك أن ندأب في ايضاح تلك الفكر و بيانها بأن نمكن الطفل من خبرة الاشياء الخاصة بها تلك الفكر حتى يضمحل بذلك ما عسى أن يقع في الذهن من الخطأ عن الفكر المذكورة ثم لا تعطى القاعدة العامة حتى تتضح الفكر المؤلفة لها وتبين

(٣) يجب أن تكون تربية الطفل مطابقة في النظام والاسلوب لتربية الامم . يؤيد هذه الحقيقة سببان أولها سبب وراثي . فاذا صح أن الناس يشبهون أسلافهم خلقاً وخلقاً واذا صح أن بعض المظاهر العقلية كالجنون مثلاً يتناقل في الذريات المتعاقبة لاسرة بعينها في سن بعينها واذا صح أن ما يرثه الانسان عن سلفه من الجنسية هو جوهري لا تؤثر فيه العوامل على اختلاف أنواعها حتى أن الرضيع الفرنسوي ليشب رجلا فرنسوياً ولو نشأ بين قوم أجانب واذا كان ما ذكرناه من هذه الحقائق يشمل الطبع البشري قاطبة وضمنه العقل نتج من ذلك أن الانسان سيسلك في التعليم السبيل الذي سلكه النوع الانساني قبل . لذلك يجب علينا أن نهج بالطفل في أمر تعليمه القصد الذي نهجه العقل العام قدماً أعني ان تربية الطفل يجب أن تكون صورة دقيقة للمدنية بجذافيرها

وقد ثبت أن نمو المدنية ورقيها قد كان اضطرارياً وان الضرورات التي دعت الى ذلك ثابتة في الطفل ثبوتها في النوع لذلك كان اجراء تربية الطفل مجرى المدنية في نموها ورقيها أمراً اضطرارياً . وتفصيل ذلك أن العقل الانساني لما وجد نفسه محاطاً بالمسائل الصعبة والمشاكل العويصة ثم أبصر نفسه مضطراً الى حل هذه المسائل والمشكلات دأب دأبه في الوصول الى غرضه طوراً بالمقارنة وتارة بالفحص وآناً بالفرض وآونة بالتجربة حتى بلغ من العلوم ما بلغ ومن ذلك يستنتج أنه لا طريق الى اكتساب العقل الانساني العلوم الا طريقة المقارنة والبحث والتجربة والفرض التي ذكرناها ولما كانت علاقة عقل الطفل بمسائل الكون ومشاكله هي نفس علاقة العقل العام بتلك المسائل نتج اذن أن عقل الطفل لن يدرك كنه المسائل المذكورة الا بالطريقة التي سلكها العقل العام في الصدد المذكور.

(٤) ومن نتائج البحث الاخير أنه يجب في كل علم أن يدرج من الشيء المكتسب بالسماع والاستعمال الى الشيء المستفاد من النظر والاستدلال . فان الرقي الانساني يرينا أن القواعد والقوانين لعلم ما مأخوذة أبداً من صناعة العلم المذكور فان الطبيعة التي جبل عليها الانسان تقضي بأنه يستعان بمعرفة المسموع والمحسوس على ادراك المعقول المتصور أي انه يجب أن يسبق العمل والتجربة استنتاج القواعد العلمية وترتيبها . فانما القواعد العلمية هي أجزاء العلم منظمة منسقة ولا يتأتى تنسيق مواد العلم وتنضيدها قبل معرفتها فيجب اذن أنه يبدأ في كل علم بالتجربة العملية ولا يؤخذ في التعقل والاستنتاج الا بعد أن تجتمع عند الانسان ذخيرة وافرة من المشاهدات . ومثال ذلك أنه لما كان تكوّن اللغات و بلوغها أبعد غايات الفصاحة وأكمل حالات البلاغة انما يكون قبل الشروع في وضع

القوانين لها من نحوية وصرفية و بيانية الخ وجب في تعليم اللغات أن يبدأ بتحفيظ الطفل الفاظها وتراكيبها فاذا تم عنده محصول وافر كان من السهل حينئذ أن يعلم القواعد والقوانين الخاصة باللغة

(٥) وهذه نتيجة أخرى تنتزع من القاعدة السابقة وهي أنه يجب في التربية أن يهتم كل الاهتمام بتأييد المبدأ الآتي وهو تعليم الطالب نفسه . يجب تشجيع الطلبة على اجراء عمليات البحث والفحص والاستدلال والاستنتاج بأنفسهم. يجب أن يقلل من أخبارهم بقدر الامكان وأن يغروا على قدر الامكان باستنتاج النتائج لانفسهم . فان الانسانية قد بلغت من الرقي مبلغها بفضل تعليم النفس وحده . وأسطع دليل على أن أعظم النتائج انما تبلغ بأن يسير الفرد على سنة المجموع هو ما نرى من فرط نجاح أولئك النوابغ الذين يحرزون قصب السبق بفضل تعلمهم الخصوصي أعني قيامهم بتربية أنفسهم فأما الذين نشأوا على الخطة المتبعة في المدارس ولم يزالوا يعتقدون بأن النجاح موقوف على هذه الخطة فلا يرجو أحدهم أن يصير يوماً ما أستاذاً لأستاذه . على أنه لو تذكر هؤلاء أن الاشياء ذات الاهمية الكبرى الخاصة بكل ما يحيط بنا انما يتعلها الانسان بلا مساعد — أو تذكروا أن الانسان يتعلم كذلك لغة قومه بلا مساعد — أو تذكروا تجارب الحياة والحكمة الخارجة عن نطاق المدرسة التي يستفيدها كل صبي بنفسه — أو لاحظوا حدة الذكاء التي تميز الكثيرين من الاطفال المهملين والتي يبديها هؤلاء الاطفال في كل ما يزاولون ويمارسون — أو تذكروا كم عقول قد اقتحمت عقبات نظام تعليمنا الفاسد وقطعت ظلماته الى ما هو أوعر وأخشن ثم أفضت ناجحة بعد تذليل كل هذه العقبات : ثبت لهم جلياً أنه اذا رتبت دروس التلميذ أمامه على النسق الصحيح والنظام الصالح أمكن

كل تلميذ متوسط الكفاءة اجتياز ما يعترضه من العقبات بالمساعدة القليلة أين الذي راقب ما يدور بذهن الطفل من الملاحظة والبحث والاستنتاج الدائبة أو أصغى الى المحوظات الدقيقة التي يبديها عما يدخل في نطاق مداركه فلم يرَ أن هـذه القوى التي يظهرها الطفل حقيقة أن تتناول من المعارف كل ما لم يخرج عن نطاقها دون مساعدة البتة وانما تلك الضرورة التي نجدها لموالاة اخبار التلميذ عن كل شيء ناشئة من بلادتنا لا من بلادته . فنحن لا نبرح نجذب التلميذ من الحقائق التي تلذه وتهمه والتي لا ينفك يلتمسها من طبعه ثم نعيضه من هـذه معلومات فوق مداركه فهي لذلك لا تلذه . فاذا نبا عنها ذهنه أكرهناها في ذلك الذهن بالتهديد والعقاب ولا يعدم حرماننا التلميذ ما يطلبه طبعه واستكراهنا اياه على ما ينبو عنه ذلك الطبع عواقبه من افساد الملكات وتبغيض المعارف عموماً الى التلميذ . فاذا أصبحت هذه البلادة التي ألحقناها بالتلميذ وأصبح كذلك استمرار خطة التعليم غير الصالحة سبباً الى أن التلميذ لا يفهم أي شيء الا بالتفسير استنتجنا من ذلك أن التعليم لا يصح أن يكون الا هكذا . فترَ انا اذا أدتنا طريقتنا الى العجز جعلنا العجز سبباً الى اتباع هذه الطريقة. لذلك كانت تجارب المعلمين ليست حقيقة أن تتخذ حجة ضد الخطة التي نؤيدها ومن أبصر ذلك أبصر أيضاً أنه لا بأس من اتباع نظام الطبيعة في جميع الاحوال والادوار فليتلطف الاستاذ في منح الذهن كل فرصة لتربية نفسه سواء في الكبر أو الصغر وليس بغير ذلك يمكننا ابلاغ الملكات غاياتها في القوة والنشاط .

(٦) وهذا السؤال الآتي خليق أن يكون ميزاناً توزن به قيمة أيما طريقة من طرق التربية — هل تهيج الطريقة في طبع الطالب لذة وسروراً ؟ — واذا أشكلت علينا أفضلية احدى الطرق على غيرها فالتبس علينا أيهما أكثر

مطابقة للقواعد السالفة الذكر حق لنا اذ ذاك أن نعوّل في أمرنا على هذا السؤال الذي جعلناه ميزاناً لقيمة الطريقة . بل لو ثبت نظرياً أن هذه الطريقة أفضل من تلك ثم خابت الطريقة الثابتة الفضل في تهييج اللذة والسرور كانت تلك الطريقة جديرة أن تنبذ ظهرياً . لان غرائز الطفل أصدق وأحق بالثقة من احتجاجاتنا وأدلتنا. فاما من جهة ملكات المعرفة (أعني اكتساب المعارف) فمعلوم أنه في حالة الصحة الذهنية لا ترى عملاً مصلحاً لصحة الذهن نافعاً له الا كان مع ذلك لاذاً ممتعاً . وكل عمل متلف فاسد الفيته كذلك مملاً عديم اللذة . وليس النفور الذي يبديه الطفل للدرس من غرائز الطفل كلا بل هو نتيجة نظامه المختل . قال فلتبرج « علمتني التجارب أن الكسل في الاطفال مناف تمام المنافاة لما جبلوا عليه من النشاط وكثرة الحركة حتى أصبحت لا أشك في أن ذلك الكسل اذا لم يكن نتيجة سوء التعليم فهو لا محالة ناشئ من علة جسمية» وما ذاك النشاط السريع التدفق من الطفل الا مباشرة تلك اللذة التي يبعثها التعليم الصالح . على أن هناك بعضاً من القوى الذهنية العليا مما لم تبلغ مبلغاً كبيراً في الامة على العموم ولم توجد بمقدار عظيم الا عند البالغين أرقى الدرجات مالم يتهيأ بعد لما يراد منه من المجهود . ولكن هذه بفضل دقتها وتركبها يجيء وقت تمرينها في آخر أدوار التعليم الصحيح . فهذه الملكات العليا لا تحمل على الشغل الا متى بلغ التلميذ السن التي يستطاع فيها استخدام بواعث مخصوصة بتلك السنين ليتسنى بذلك مقاومة الكراهية التي يحدثها الدرس مباشرة باللذة المستدعاة بالواسطة . فاما فيما سوى هذه من الملكات المنحطة عنها تكون اللذة الناشئة من أعمال الذهن في تعاطي الدرس هي الحاث الصالح على تناول ذلك الدرس بل هي مع احكام النظام لا تحوج الى حوادث خلافها حتى أنه اذا انصرف المعلم

عنها الى غيرها كان هذا دليلاً واضحاً على خطأه وتنكيبه عن الصراط المستقيم ولا تزال التجارب تخرج لنا كل يوم طريقة تحدث اللذة بل الابتهاج والجذل ثم تجد سائر الادلة قد أثبتت لنا أن هذه الطريقة هي الصالحة الصحيحة

ولعل هذه القواعد المرشدة ستكون قليلة الاقناع عند أغلب الناس اذا تركت على هذه الصورة النظرية فلأجل بيان كيفية تطبيقها بالأمثال أولاً ولاجل اعطاء بعض الملاحظات الخصوصية المتعددة ثانياً نريد الآن أن ننتقل من نظريات التربية الى عملياتها

ذهب الاستاذ بستالوزي (ولم يزل مذهبه آخذ في أسباب التمكن والارتقاء) الى أن التربية — على شكل ما — يجب أن تبتدأ من المهد. وكل من راقب تلك النظرة التي يرسلها الرضيع حواليه من عين مفتحة أيقن أن التعليم لا شك يبتدأ من ذاك الوقت سواء أردنا ذلك أو لم نرده وأن تناوله الاشياء وتقليبه اياها بأصابعه ومصه كل ما يقع في يده. واصغائه فاتحاً فاه لكل صوت. كل هذه هي الدرجات الأولى في ذاك السلم الذي ينتهي في اكتشافات كواكب جديدة واختراع آلات حاسبة واخراج المرسومات العظيمة وتأليف القصائد الكبيرة . ولما كان نشاط الملكات فياض من طبعه ومحتوم كذلك . أصبح سؤالنا الآن هو هل نمد الذهن بمختلف المواد اللازمة لحركة هذه الملكات؟ وليس لهذا السؤال الا جواب اثبات. والموافقة على نظرية بستالوزي لا توجب كما أسلفنا الموافقة على عمله . وهنا نذكر مثلاً لذلك . قال بستالوزي في كلامه عن افادة المعلومات ما يأتي :

«يجب أن يكون كتاب الهجاء مشتملاً على جميع أصوات اللغة وهذه الاصوات ما يجب تعليمها في كل عائلة منذ أوائل الطفولة فيجب أن يقوم الطفل

الذي يقرأ كتاب الهجاء بتعليم هذه الاصوات للرضيع في مهده بكثرة التكرار وان كان الرضيع لما يستطع التفوه بالاصوات المذكورة حتى تنتقش على صحيفة ذهنه بكثرة التكرار » فاذا أضفنا هذا القول الى ما ذكر الاستاذ المذكور في بعض أقواله عن تربية الطفل من أنه يجب على الأم ان تجعل أول دروس الرضيع تعليم الاسماء والمواضع والعلاقات والخواص ووظائف الاعضاء الظاهرة وضح لنا جلياً أن أفكار بستالوزي في التعليم العقلي الأولى هي أفكار غير ناضجة لم تمكنه من اكتشاف أصوب الطرق وأقومها ولكي نجيد فهم هذا الموضوع دعنا نتأمل ما يقتضيه علم النفس في هذا المبحث .

« أن أول ما ينطبع في ذهن الرضيع هي الاحساسات البسيطة (التي لا تتجزأ) الناشئة من الضوء والمقاومة والصوت وهذا أمر طبيعي وهو أن الاحساسات المركبة لا تحصل في الذهن قبل حصول الاحساسات البسيطة التي تؤلفها . فهذه الاشكال لا تحصل صورها في الذهن حتى يكتسب شيئاً من العلم بالضوء في خواصه ودرجاته وبالمقاومة في قواها المختلفة لانه من المعلوم أن الاشكال المنظورة انما تدرك بواسطة أنواع الضوء المختلفة والاشكال الملموسة بواسطة أنواع المقاومة . وكذلك الاصوات البينة النطق الصحيحة المخرج لا تعرف قبل معرفة الاصوات غير البينة ولا الصحيحة المخرج التي تؤلفها . وكذلك في كل أمر آخر . وبناء على هذه القاعدة وهي التدرج من البسيط الى المركب يجب أن نمد الطفل بوفرة من الاشياء المشتملة على أجناس المقاومة ودرجاتها المختلفة وبوفرة من الاشياء العاكسة للضوء في صفاته ومقاديره المختلفة وبوفرة من الاصوات المتباينة في الشدة والمادة . وأوضح دليل على أن غرائز الاطفال تثبت صحة هذه النتيجة بما تراه من شدة سرور الطفل عند ما يعض

لعباته ويلمس ازرة أخيه اللامعة ويجذب شوارب أبيه . وكيف أن الاشياء البهيجة الالوان تستغرق ذهنه . وكيف يتلألأ وجهه سروراً عند سماع ألفاظ المداعبة من مربيته أو طقطقة أصابع الضيف أو أي صوت لم يكن سمعه قبل . ولحسن الحظ ترى أن ما تتبعه المربيات مع الاطفال من الاعمال المعتادة تفي بجزء عظيم من حاجات التربية الاولية . على أنه لا تزال بعد أمور هامة تستوجب من الاهتمام أكثر مما يظن بادي بدئ والملكات أثناء ذاك النشاط المنبعث من ذاته الذي يصحب زمن نشئها وارتقائها تكون أشد تأثراً بالمؤثرات منها في أي زمن آخر ولما كانت هذه المواد الاولية مما يلزم اتقانه وبما أن اتقانها يستدعي زمناً أصبح من الاقتصاد في الزمن أن يشغل الطور الاول من الطفولة في اجادة تحصيل هذه العناصر الاولية لا سيما وان هذا الطور لا يستطاع فيه سوى ذلك

ولا يفوتنا أن في انالة الطفل ما يطلبه ذهنه من الصور فائدة لصحته ومزاجه ولولا ضيق المجال لحسن بنا أن نورد هنا بعض الارشادات الى أصح الطرق أن يتبع في هذه التربية الاوليـة . ولكنه يكفي مع مراعاة قانون النشوء والارتقاء القاضي بالتدرج من الشيء غير المحصور الى الشيء المحصور أن نقول انه ينبغي لانماء الملكات أن يبدأ بجعل الطفل يميز بين الاضداد ذات الفروق الواضحة الساطعة فيبدأ بعرض الالوان الشديدة التباين والاصوات الشديدة الاختلاف في القوة والطبقة والمواد البعيدة البون في الصلابة والنسيج . ثم ينبغي بعد ذلك التباطؤ في التدرج من هذه الى الاشياء التي هي أقرب شبهاً وأدنى نسباً

واذا انتقلنا بعد ذلك الى دروس الاشياء التي هي تكملة لتلك التربيـة الاولية جدر بنا ان نلاحظ أن الخطة المتبعة في تعليم هذه الدروس هي مناقضة

للخطة الطبيعية التي يستدعيها الطبع الانساني سواء في الطفولة وما بعدها

قال المستر مارسل « يجب أن يعلم الطفل كيف ان أجزاء شيء ما يأتلف بعضها ببعض . ولكن دروس الاشياء تدرّس للاطفال بمجرد القول على أن من نظر الى حياة الطفل اليومية علم أن كل ما يستفيده الطفل من المعلومات الخاصة بالاشياء يستفيده من ذات نفسه . وان صفات الصلابة والثقل الخاصة ببعض المظاهر واختصاص بعض الاشخاص باشكال وألوان مخصوصة. وحدوث أصوات بعينها من حيوانات ذات أشكال معينة كل هذه أشياء يستفيدها بنفسه . وكذلك في عصر الرجولة حينما تفقد المعلمون ترى ان ما يستفيده الانسان من المشاهدات والاستدلالات في كل حين للاهتداء والاسترشاد كله يكتسب بلا معين ولا مساعد . وعلى قدر دقة هذه المشاهدات وصحة هاتيك الاستدلالات يكون سبق الانسان في مضمار الحياة . واذا كانت حياة الطفل والرجل تدل جلياً على صحة هذا القانون الطبيعي وهو أن المشاهدة هي أس التعلم فهل يصح بعد ذلك أن نسير على عكس ذلك في دور المراهقة أعني ما بين الطفولة والرجولة فنعدل عن طريقة التعليم بالمشاهدة الى طريقة التعليم بالاملاء والحفظ ؟ أليس من الطبيعي أن نسير في جميع أدوار العمر على طريقة واحدة. ألا ترى ان الطبيعة لا تزال تذكرنا بطريقتها المثلى في كل آن وبرهة لو أن لنا عيون تبصر وعزائم تمضي . أي شيء أجلى من شغف الطفل بالانعطاف النفسي. فانظر الى الطفل الصغير الذي تجلسه على ركبتك كيف يقذف بلعبته في وجهك لتنظرها وكيف اذا حك المنضدة بأصبعه المبلول فحدث لذلك صرير التفت وحدد اليك نظره كانما يقول لك « اسمع هذا الصوت الجديد » . ثم انظر الى كبار الاطفال اذ يدخلون على أمهاتهم فيصيح أحدهم « انظري يا أماه ما أعجب

ذلك الشيء » « يا أماه أبصري ذلك » وهي خصلة كان الاطفال يسترسلون فيها لولا حماقة الامهات اللائي يعترضن تلك الطبيعة الحميدة بقولهن للطفل «اسكت لا تشغلنا » ثم انظر كيف اذا خرج الطفل للنزهة مع مربيته انقاب اليها من حين الى آخر يحمل الازهار ليطلعها على نضارتها ويحدو بها الى أن تعترف معه بتلك النضارة والرونق . ثم انظر الى الطفل كيف انه اذا بهره منظر جديد انبرى يصفه والالفاظ من حدة الشوق والقلق تندفق من لسانه . لو أن هناك من أعاره أذنا مصغية . أليست نتيجة ما نقول بينة واضحة ألم يتضح لنا وجوب اتباعنا هذه الغرائز العقلية — وأنه ليس علينا الا تنسيق هذه الطريقة الطبيعية وتنظيمها وانه ينبغي لنا أن نصغى الى كل ما يريد الطفل أن يذكره عن شيء ما ثم نسوقه الى ان يقول جميع ما يملي عليه الفكر بخصوص هذه الاشياء ونلفت بصره أحياناً الى ما لم يكن رآه قبل بقصد تعويده على دقة النظر حتى يعود يبصر الاشياء بلا ارشاد اليها . ثم أنظر الى الام اللبيبة كيف تلقي على طفلها هذه الدروس الاولية تجدها تعلمه مع التدريج أسماء الخواص البسيطة مثل الصلابة واللين واللون والطعم والحجم . ترَ الطفل يبذل الجهد في اعانتها على نجاح هذا الدرس بان يطبق أسماء هذه الصفات على الاجسام المشتملة عليها فيغدو عليها بهذا الشيء قائلاً لها هذا صاب ويروح بذلك قائلاً ذاك أحمر . وكلما لفتت نظره الى صفة جديدة في شيء جديد ذكرتها بمناسبة الخواص التي تعلمها قبل حتى يعود الطفل بفضل قوة التقليد قد تعود سرد هذه الصفات متتابعة كأنها في نظام . واذا عرضت عليه الشيء ليسرد خواصه فاغفل بعضها كانت فرصة لادخال عملية السؤال فتسأله هل بقي هناك صفات لم يذكرها بعد . وربما عجز عن ذلك . فتتركه برهة في حيرة ثم تخبره بما أعيى عليه . فاذا

تكرر هذا التمرين علم الطفل ماذا يعمل في مثل ذلك . حتى اذا عاد اليه بعد فقالت له الأم اني أعلم من خواص هـذا الشيء فوق ما ذكرت تحركت في نفسه الانفة والنخوة وأنعم النظر في ذلك الشيء وروأ في الامر وأرهف الفكرة فتنحل له المسألة ويعرف ما أريد منه . ثم يمتلأ فرحاً بنجاحه وتشاركه الام في فرحه . وكذلك تفرح الاطفال كافة عند ما يظهر لهم ما ينطوون عليه من القوى والملكات . فيرغب احدهم في الازدياد من الظفر ويذهب في طلب الاشياء ليذكر خواصها لأمه . وكلما تفتحت ملكاته أضافت الام الى ما عرفه من الخواص صفات جديدة متدرجة من الصلابة والطراوة الى الخشونة والنعومة ومن اللون الى الصقال ومن الاجسام البسيطة الى المركبة وكذلك تزيد الأم في تعقيد الامر كلما زات قوة الطفل فتدأب في زيادة اجهاد ملكة التفاته وذاكرته ولا يفوتها المحافظة على بقاء لذته ونشاطه بان لا تزال تعرض عليه المناظر والمؤثرات الجديدة مما يستطيعه ذهنه وان لا تزال تسره بالفوز على الصعائب الصغيرة التي لا تخرج عن طاقته. وهي في عملها ذلك لم تزد على اتباع حركة النفس تلك الحركة المنبعثة بلاواسطة التي لم تزل تجري منذ عهد الطفل بالحياة الدنيا— أعني ان الام لم تزد على تأييد عملية النشوء والارتقاء.. تأييدها على الصورة التي يقتضيها سلوك الطفل الغريزي . ومحقق ان هـذه الطريقة هي أجدر الطرق بتمكين عادة الملاحظة والنظر الواسع الذي هو الغرض المقصود من هذه الدروس. فاما ان تقول للطفل هذا الشيء وتريه ذلك فما هو بتعليمه سعة النظر والملاحظة وانما هو جعله وعاء لملاحظات الغير. وتلك خطة مليئة باضعاف القوى الخاصة بالتربية الذاتية (تعليم الانسان نفسه) لا بتقوية هذه القوى . ومليئة لذلك أن تحرم الطفل ذلك السرور الناشيء من النشاط الظافر والعمل الفائز وهي كذلك

خطة تقدم للطفل المعارف اللذيذة الخلابة في صورة معلومات املائية اعتيادية . فتحدث في نفس الطفل ذلك الملل والسآمة والبغض التي طالما تبديها الصبية تلقاء دروس الاشياء . فاما اتباع الخطة التي أسلفنا تفصيلها فما هو الا قيادة الذهن الى غذائه الملائم — والجمع بين شهوات الذهن وبين الشيئين المجانسين لها وهما الحب الصحيح والرغبة في التعاطف (تعاطف المعلم والتلميذ في الدرس) — حتى يحرز الطفل باجتماع هذه الثلاث الالتفات المتناهي في الشدة مما يشحذ المدارك فتبلغ أقصى الكمال والحدة ويعتاد الذهن من مبدأ أمره على مساعدة الذات التي لا بد له من الاخذ بها في مستقبل العمر

والواجب في دروس الاشياء أن لا يقتصر على تغيير الطريقة المتبعة في تعليمها بل أن يوسع كذلك نطاق الاشياء ويمد في شأو تعليمها . فيجب أن لا تقصر الاشياء على محتويات المنزل بل أن تشمل مع ذلك محتويات الحقول والمزارع والمحاجر والسواحل ثم يجب أن لا تنقطع هذه الدروس مع طور الطفولة الاول بل أن تستمر مع المراهقة حتى تندمج — في خفاء — مع مباحث العلم الطبيعي . وليس علينا في ذلك الا اتباع الارشادات الطبيعية

أي سرور أعظم مما يجده الطفل لدى جمعه الازهار الجديدة ومراقبته الحشرات التي لم يكن نظرها من قبل أو لدى خزنه الحصى والاصداف . وأي الناس لا يعتقد أن المعلم يقدر بفضل مشاركته الطفل في سروره وعمله أن يمعن بذلك الصغير الى حيث يشاء من درجات الفحص والتنقيب عن تراكيب هذه الاشياء وصفاتها . وكل عالم نباتي استصحب الاطفال في غدواته بين الغابات وروحاته لا بد أن يكون قد شاهد فرط اهتمام الصبية بمشاركته في أبحاثه وكيف انهم يجدون في البحث عما يلتمسه من النبات وكيف يبالغون في الالتفات اليه

حينما يفحص هذه النباتات وكيف يبهرونه بكثرة الاسئلة وكل تابع للمذهب الباكوني (نسبة الى باكون رأس فلاسفة الانكليز) أعني كل خادم للطبيعة صادق ومفسر لاسرارها يقول بوجوب اتباع الخطة السالفة الذكر . ومتى عرف الطفل الخواص البسيطة للاجسام وجب حينئذ أن يساق الى خبرة الاشياء التي يصادفها في غدوه ورواحه ليقف على خواصها الدقيقة الغامضة لان مايبدو في هذه الاشياء لاول وهلة انما هي الخواص البسيطة الظاهرة مثل ألوان أطباق الزهر وعددها وأشكالها وأشكال العيدان والورق هذا في النبات. أما في الحشرات فمثل الاجنحة والارجل والقرون وألوانها فاذا عرفت هذه قدم للطفل ماوراءها من الحقائق أعني دقائق النبات والحشرات ودخائلها وغامض خواصها . ويكون مرمى هذه الخطة هو اغراء الطفل بأن يطمح أبداً الى استغراق وصف مايحاول وصفه حتى لا يترك فيه مقالاً لقائل

ونحن ننتظر أن نسمع من أناس كثيرين قولهم أن هذا مضيعة للوقت والجهد وانه أولى للاطفال أن تشتغل بنقل المكتوبات وحفظها حتى يرشحوا بذلك أنفسهم لاعمال الحياة ثم نأسف لشيوع هذه الافكار الفجة والآراء السقيمة ومع سكوتنا عن تبيين شدة الحاجة الى تربية المدارك على نسق منظم وعظم قيمة التمرينات السالفة الذكر بصفتها أسباب لقضاء هذه الحاجة فانا مستعدون أن نثبت فضلها من وجهة المعلومات المستفادة منها . فاذا كان الغرض أن لا تكون الناس الا جماعة يقضون الساعات بالنظر في الدفاتر لا تجاوز أفكارهم ما يحترفون به من المهن والصناعات وكان لا يراد بهم الا أن يكونوا مثل الرجل الذي لا تتعدى ملاذه الجلوس في احدى الحدائق يدخن ويشرب النبيذ أو مثل صاحب المزارع الذي لا يعرف عن الغابات الا أنها أماكن للصيد والقنص

والذي أكبر مزاياه أنه يعرف تقسيم الحيوان الى صيد ومواش وهوام — اذا كان ذلك فلا حاجة الى تعلم شيء لا يعين على زكاء الغرس وامتلاء المخازن أما اذا كان هناك غرض أشرف من جعلنا آلات عمالة — اذا كان للاشياء المحيطة بنا فوائد خلاف فضلها في جلب المال — واذا كان للانسان ملكات أرقى من الملكات الحسية والاكتسابية — واذا كانت الملاذ الناتجة من الشعر والفنون الجميلة والعلوم والفلسفة لها أقل قيمة . اذا كان كل ذلك وجب أن تنشط في الطفل تلك الرغبة الغريزية الباعثة له على اجتلاء محاسن الطبيعة وفحص مظاهرها . ولكن هؤلاء الماديين الذين يكفيهم أن يخرج أحدهم الى هذه الدنيا ثم يتركها دون أن يعرف ماهيتها أو محتوياتها ليسوا من الحق على شيء . وسيعلم الناس أن العلم بقوانين الحياة مفضل على كل علم غيره وان قوانين الحياة هي أس الحركات الجسمية والعقلية بل أس جميع الاعمال المنزلية والتجارية والسياسية والاخلاقية وان هذه القوانين ضرورية لتنظيم السلوك الشخصي والإجتماعي. وسيرى الناس أن جوهر هذه القوانين واحد في جميع العالم الحيوي وأنه لا يمكن معرفتها في مظاهرها المختلطة حتى تدرس في مظاهرها البسيطة . ومتى ثبت ذلك ثبت أيضاً أن ما نبذله من اعانة الطفل على تحصيل المعلومات الخاصة بما يخرج عن منزله مما يولع به الطفل وما نبذله كذلك من تشجيعه على اقتناء هذه المعلومات عينها أثناء الشبيبة انما هو اغراء له بأن يخزن في ذهنه المواد التي تكون له في المستقبل خير ذخر ينتفع به في الاستنتاجات العلمية التي يسترشد بها في جميع أعماله

وما ينتشر الآن من اعتراف الناس بفائدة فن الرسم في التربية انما هو أحد الشواهد الدالة على تحسن الآراء فيما يتعلق بالتربية العقلية. وليس المعلمون في ذلك الا عاملين بما لم تزل تأمر به الطبيعة وتحث عليه . وكلنا يعرف

ما لا تبرح الاطفال تأتيه من رسمهم صور الرجال والمنازل والاشجار والحيوانات مما يحيط بهم . ومن تصفحهم الكتب المملوءة بالصور الذي هو من أكبر لذاتهم. ثم تحملهم غريزة التقليد على الطمع في احداث مثل هـذه الصور . ثم جهدهم في تمييز ما يرونه من الاشياء العجيبة انما هو تمرين غريزي للمدارك وواسطة الى ابلاغها في الدقة والقوّة درجة أعلى

ولو أن المـدرسين ينقادون لارشادات الطبيعة في اختيار أحسن الطرق لتعليم فن الرسم لكانوا أحسن صنعاً . أي الاشياء يبدأ الطفل بتمثيلها ؟ هي الاشياء الجسيمة والخـلابة بجمال لونها — هي الاشياء التي تعلق بهـا لذائذه وشؤونه مثـل الآدميين الذي استفاد منهم جملة احساسات وعواطف ومثـل البقر والكلاب التي تلذه منها مظاهرها المختلفة ومثل المنازل التي لا يبرح يراها والتي تدهشه بحجمها وتباين أجزائها . ثم في أي عمليات الرسم يكون أعظم التذاذه . في التلوين . وقد يقنع الطفل بالقلم الرصاص اذا أعوزته الالوان فاما اذا رزقه الله صندوق الصبغات وفرشة الصبغ فذلك الكنز الانفس والذخر الاثمن . وليس رسم الشكل في نظر الطفل الا أمراً ثانوياً فهو لا يفعله الا ليكون سلما الى الامر الاهم أعني التلوين ولا يرى الطفل نعمة أعظم من تكليفه تلوين جملة من الحروف . على أن هـذه الطريقة (أعني الابتداء مع الطفل بالتلوين) مهما خطأها مدرسو الرسم الذين يبدأون بترسيم الخطوط أقول هذه الطريقـة هي الطريقة المثلى لانطباقها على القوانين البسيكولوجية (قوانين علم النفس).وكان الواجب أن يجعل ذاك الشغف بالالوان الذي يبدو في الاطفال ولا يزال يصحب الكثير منهم طول أعمـارهم واسطة لحث التلاميذ على رسم الإشكال الصعبة وغير المألوفة حتى يجيدوا نقلها فتكون لذة التلوين المكافأة

لمستقبلة على ما يتجشم التلميذ من عناء التخطيط . ولا يصح أن تكون اساءة الطفل في رسم الاشكال وقلة دقتها سبباً الى انكارنا ما جبل عليه من المواهب الالهيـة وليس الامر هو هل يجيد الطفل الرسم ولكن الامر هو هل تنمو فيه ملكاته وأول الاشياء هو أن يكتسب الطفل بعض الاقتدار على أصابعه وشيئاً من معرفة التشابه . والتمرين الذي ذكرناه آنفاً هو أقوم السبل الى بلوغ ذلك بما أنه مما يأتيه الطفل عفواً واجداً فيه لذة كبيرة .

ومعلوم أنه في أوائل الطفولة لا يمكن أن تكون هناك للرسم دروس رسمية. فهل يكون ذلك سبباً الى أن نتمع في الطفل ما يبذل من الجهد لتعليم نفسه . أو نسكت عن تأييد ذلك الجهد وتعضيده ؟ كلا بل يلزمنا عكس ذلك . ولو أننا أعطينا الاطفال قطعاً صغيرة من الخشب ليصبغوها وخرطاً بسيطة ليلونوا حدودها لم يكن هذا التمرين قاصراً على انماء ملكة التلوين بل تعدى الى افادة الاطفال بعض العلم بأشكال الاشياء والبلاد وبعض القدرة على اجادة تحريك الفرشة. ولو استعنا بواسطة الاشكال الخلابة على تقوية غريزة الرسم في الاطفال مهما أساؤا في نقل هذه الاشكال لنتج عن ذلك أنهم متى بلغوا السن التي تلقى فيـه دروس الرسم وجدت لهم ملكة لم تكن لتوجد لولا ذلك . ولافاد ذلك اقتصاداً في الوقت ورفع كثيراً من المؤونة عن عاتق المعلم والتلميذ

ويفهم مما قلنا اننا ننكر عملية الرسم اذا كان بواسطة النقل من النسخ . وأننا أشد انكاراً لطريقة رسم الخطوط المستقيمة والمنحنية والمزدوجة التي يجعلها بعض المدرسين مبادئ لتعليم هذا الفن . وقد ساءنا من « جمعية الفنون » انها جادت باستحسانها على كتاب رسم من أسخف ما رأينا وهـذا الكتاب يقول انه يقدم للتلميذ طريقة تعليم بسيطة لكنها مع ذلك منطقية وقد ابتدأ الكتاب

المذكور لهذا القصد بعدة تعاريف كما يأتي

« الخط البسيط في الرسم هو علامة تمد بين نقطتين

« الخطوط بالنسبة لنوعها في الرسم تنقسم الى قسمين

(١) مستقيمة وهي أقرب الابعاد بين نقطتين مثل اب

(٢) ومنحنية وهي علامات ليست باقرب الابعاد بين النقطتين

ثم يتلو هـذا ذكر الخطوط الافقية والعمودية والمائلة والزوايا المختلفة الاصناف والاشكال المتنوعة التي تؤلف من الخطوط والزوايا . وقصارى القول ان الكتاب المذكور لا يخرج عن كونه « أجرومية أشكال مع التمرينات » وبذلك تكون طريقة الابتداء بتحليل العناصر التي نبذناها في تعليم اللغات قد رجع اليها في تعليم الرسم فنكون قد اتبعنا طريقة الابتداء بالمعين بدل اتباعنا طريقة البدء بغير المعين وعولنا على خطة تقديم المعقول على المحسوس والافكار على التجارب . وكون هـذا عكس للترتيب الصحيح هو مالا يحتاج الى تكرار . وقد قيل بمناسبة العادة المتبعة وهي البدء قبل تعليم لغة ما بتدريس أجزاء الكلام ووظائفها انها مثل البدء قبل تعليم المشي باعطاء الطفل سلسلة دروس عن أعصاب الساق وعضلاتها وعظامها . وهـذا كذلك مثل افتتاح صناعة الرسم بتعاريف الخطوط مما لا يوصل اليه الا بعد تحليل الاشكال المراد رسمها . وهذه الاصطلاحات بغيضة غير لازمة وهي تبغض الفن الى التلميذ من مبدأ الاشتغال ومن العجب أن المدرسين يسلكون هـذه الطريقة المنكرة بقصد تعليم التلميذ ما سوف يستفيده مع المزاولة من حيث لا يشعر . وكما أن الطفل يستفيد معاني الالفاظ عفواً مما يدور حوله من المحادثات دون ان يستعين بالمعاجم . كذلك يستفيد في لذة وهينة مما يسمع من المحوظات المبداة عن

الاشياء والصور وعن مرسوماته نفسه تلك الاصطلاحات العلمية التي لو أعطيت له بادىء بدء كابد منها لغزاً عويصاً مضجراً .

واذا كانت قواعد التعليم العامة التي وضعت مما يعوّل عليه أقل تعويل وجب أن نجعل تعليم الرسم شفعاً لتلك المجاهيد التي يبذلها الطفل الصغير في نقل الاشكال والتي ذكرنا انها جديرة بالتأييد والتشجيع . ومتى أفلح ذلك التمرين الاختياري في افادة الطفل شيئاً من مهارة الكف ومعرفة التناسب قام في ذهنه — ولو على وجه الابهام — فكرة عن صور الأجسام كما تبدو في المنظور بابعادها الثلاثة . ومتى امكن الطفل بعد المحاولات العديدة أن ينقل الصور على القرطاس وان لم يفق في ذلك أطفال الصين الذين يضرب بهم المثل في سوء الصنعة . أقول متى كان ذلك حسن بنا أن نلقن الطفل حينئذ درساً ابتدائياً في رسم المنظور بواسطة الادوات المعدة لذلك . وربما أزعج قولي هذا بعض الناس ولكن ذلك الدرس مما لا يخرج عن طاقة الطفل العادي الذهن . وذلك أن يقام أمام الطفل على المنضدة لوح من الزجاج ثم يجعل من وراء هذا اللوح شيء ما ثم يسأل التلميذ أن يثبت بصره فيما وراء الزجاج ثم ينقط بالحبر على اللوح المذكور نقطاً تقابل أو تخفي أركان الشيء المنظور . ويسأل عقب ذلك أن يصل بين هذه النقط بالخطوط ليرى أن الخطوط الممدودة ستخفي أو تنطبق على حدود الشيء المذكور . فاذا جعل على ظهر اللوح قرطاس من الورق اتضح للطفل أن الخطوط التي مدها تمثل الشيء الذي أبصره من وراء الزجاج . وليس أمر هذه الخطوط قاصراً على كونها تشابه حدود الشيء بل ان الطفل ليوقن بذلك التماثل لانه طبق الخطوط بيده على الحدود المذكورة . بل انه ليؤكد لنفسه صحة ذلك اذا رفع القرطاس فاتحدت الخطوط والحدود . ثم يكون لذلك في نفسه

موقع جديد مدهش هذا خلاف استفادته هـذه الفائدة الآتية وهي أن الخطوط المرسومة على سطح ما بأطوال واتجاهات مخصوصة قد تمثـل خطوطاً أخرى كائنة في الفراغ ذات أطوال واتجاهات أخرى . فاذا نقل الشيء عن مكانه بالتدريج نبه الطفل الى أن يرى كيف أن بعض الخطوط تقصر حتى تخفى عن العيان و بعضها يظهر للعيان و يتطاول وليس ذلك كل ما في الامر بل ان في امثال هـذا التمرين فرصة لتنبيه الطفـل من حين لآخر الى تقارب الخطوط المتوازية والى سائر الحقائق الرئيسة في فن المنظور . فاذا كان ممن عودوا الاعتماد على النفس ثم اقترح عليه أن يرسم الشيء دون الاستعانة بالزجاج فرح بالاقتراح وأشرق له ونشط في رسم الشيء بالنظر وحده وهكذا يجعل من الاغراض الهامة أن يحدث الطفل دون مساعدة البتة صورة للشيء تماثل ما أحدث على الزجاج وهكذا تجتمع له بالتدريج ملكة المشاهدة و يعتاد رسم المرئيات بهذه الطريقة السهلة الجذابة الحسية المنطبقة على العقل التي تكفيه شر الطريقـة المزرية بالفهم أعني طريقـة الرسم نقلاً عن المرسومات . وزد على هذه الفوائد أن الطفل يتعلم بهذه الطريقة من حيث لا يشعر حقيقة الصور وماهيتها (وهي أنها رسوم للاشياء كما تبدو حالة ظهورها على مستوٍ يمتد بينها و بين العين).فاذا بلغ الطفل السن التي يكون فيها أهلا للبدء في فن المنظور العلمي كان قد أحاط علما بقواعد هذا الفن من الحقائق .

واذ قد انتقلنا الآن الى الكلام عن الطرق الصالحة في تعليم مبادئ الهندسة لا نجد أوفق من سرد الكلمات الآتية للمستر وايز في ذلك الشأن

« جرت العادة في تربية الاطفال باستعمال المكعبات عند تعليم الحساب فلتستعمل كذلك في تلقية مبادئ الهندسة لان هذه المكعبات صلبة ملموسة

فهي تكفينا مؤونة التعريفات السخيفة والايضاحات المتعلقة بالنقط والخطوط والسطوح التي لم تخرج عن كونها معاني مجردة يعجز عنها ذهن الطفل. والمكعب فضلاً عن كونه يمثل من مبادئ الهندسة عدداً وفيراً مثل النقط والخطوط المستقيمة والمتوازية والزوايا الخ الخ . فانه قابل للتجزؤ الى أجزاء مختلفة وقدعرف الطفل هذه الاجزاء في الاعداد فيسهل الآن عليه أن يقارن بين أقسامها المتعددة وبين العلاقات الكائنة بين تلك الاقسام ومن ثم ينتقل الى الكرات التي يستمد منها معرفة الدائرة والمنحنيات عموماً الخ الخ .

ومتى أصبح للطفل بعض التضلع من معرفة الاجسام جاز أن ينتقل الى السطوح وقد يمكن أن يجعل هذا الانتقال سهلاً جداً وذلك أن يجزأ المكعب الى طبقات رقيقة توضع على قرطاس فيرى الطفل من المستطيلات السطحية عدد ما هنالك من الاجزاء . ثم تطبق هذه الطريقة على الكرات وبذلك يمكن الطفل أن يبصر كيف تتكوّن السطوح فيسهل عليه تصورها في أيما جسم بذلك يكون الطفل قد اكتسب هجاء الهندسة وقراءتها فينتقل حينذاك الى كتابتها .

وأسهل الطرق — وأحكمها لذلك — هو أن توضع هذه المسطحات على الورق ثم يسأل التلميذ أن يطوف بالقلم حواليها فاذا تكرر ذلك فلتوضع المسطحات على مقربة من الطفل ثم يسأل أن يرسمها بالنظر على الورق » انتهى كلام المستر وايز

ومتى توفر عند الطفل — بفضل ما يماثل طريقة المستر وايز — ذخر وافر من الافكار الهندسية أمكننا أن نتقدم بالطفل خطوة بتمرينه على قياس الاشكال المرسومة بالعين اختباراً لصحتها وبذلك نبعث في الطفل الحرص

الشديد على مراعاة الدقة في رسم تلك الاشكال مع تنبيهه الى ان هذه الدقة من أصعب الاشياء وأوعرها

ولا شك ان الهندسة (كما يفهم من منطوق اللفظة) مما يرجع اصله الى الطرق التي كان يوجدها الصناع وغيرهم لقياس قواعد المباني ومساحات الاماكن وما شاكلها . فلم يكن هناك باعث على كنز حقائق هذا العلم الا فوائدها المادية لذلك وجب أن يجعل اشتغال الطفل بهذه الحقائق الهندسية بناء على ظروف تشابه تلك التي كانت داعية الجنس البشري الى مزاولة ذلك الفن . أعني أن يترك الطفل في الاحيان وحده الى الورق المقوي الذي اعده لبناء المنازل الورقية والى الصبغ التي هيأها لرسم الزخارف والى شتى الاشغال النافعة التي يسوقه اليها الاستاذ المتفنن أقول يترك الطفل وحده الى كل هذا ليدعى سعيه ويكدح كدحه كما يفعل البنّاء المجتهد حتى يعرف مقدار ما يكابد الانسان من المشقة في انجاز الاعمال قاصراً اعتماده على حواسه المجردة . ثم متى بلغ الطفل بعد رياضة حواسه السن الجديرة بأن يستعمل فيها آلة البركار (البرجل) لم يزل مع سروره بهذه الآلة المحققة لاجتهاداته البصرية معوقاً عن بلوغه منتهى الدقة بعدم توفر سائر الآلات الهندسية. وخير له أن يترك على هذه الحالة مدة معينة لسببين أحدهما انه لما يبلغ السن الجديرة بما هو أرقى مما ناله. ثانيهما انه من المستحسن انه يشعر بازدياد حاجته الى الوسائل النظامية . واذا أريد أن لا يزال اكتساب المعارف مصحوباً باللذة واذا كانت أكبر مزايا العلم في أوائل الرقي البشري كما في أوائل الرقي الطفلي هي خدمته للصناعة . ظهر جلياً أن خير المقدمات للهندسة هي طول التمرن على ما يبناه من تلك العمليات النافعة التي ستسهل جداً بفضل الهندسة فيما بعد . ثم لاحظ أن الطبيعة ترشدنا هنا كذلك الى المنهج القويم . وحسبك

دليلاً على ذلك شدة ولع الاطفال بتقطيع الاوراق قصدالبناء والتصوير وهو ولع لو عني بتقويته في الطفل وتوجيهه الى المقصد الصحيح لم يقتصر على تمهيده السبيل الى الافكار العلمية حتى يفيد التلميذ كذلك من خفة اليد ما هو مفقود عند أغلب الناس

فاذا بلغت ملكات الملاحظة والاختراع الحد المقصود انتقل التلميذ الى الهندسة المتعلقة بالحلول النظامية فيتلقى دروسها بغير براهين ثم يجب أن يكون هذا الانتقال كسائر الانتقالات التعليمية مبنياً على المناسبة مع المحافظة على علاقة الهندسة المذكورة بالصناعة البنائية (أعني ما يشتغل بها الاطفال اذ يبنون من الورق وخلافه بيوتاً وأمثلةً لاشياء مختلفة) فترى في اعطائك الطفل الشكل ذا المثلثات تصنعهُ له من الورق المقوى وتكليفك اياه أن يصوّر مثاله مزيتين الاولى ان هـذه عملية لاذّة والثانية انهـا فاتحة صالحة . فيجد الطفل حين يحاول ذلك أنه يلزمه أن يرسم أربعة مثلثات متساويات الاضلاع مرتبة في مواضع معينة . ولما كان لاعواز الطريقة المحكمة يعجز عن انجاز هذه العملية بالدقة ظهر له بوضع المثلثات في مواضعها المخصوصة أنه لا يقدر أن يلائم بين أضلاعها وأن زواياها لا تجتمع في رأس واحـد . حينذاك يبين له كيف انه يستطاع برسم دائرتين أن يحكم رسم هذه المثلثات بلا تخمين ثم ما اخلق الطفل بعد ماصادف من الخيبة أن يعرف قيمة هذه الفائدة الجديدة . وبعد اعانته على حل أول مسألة بقصد تفهيمه ماهية الطرق الهندسية يترك وشأنه لممارسة ما يعرض عليه من المسائل وحلها جهد استطاعته فليس على الطفل الا قليل من الصبر والاناة حتى يقدر على المسائل الآتية: وهي تنصيف الخطوط والزوايا ورسم المتوازيات والاشكال العديدة الاطلاع وما شاكلها ثم يسار به تدريجياً من هذه

الى ما هو أصعب وأشكل . ولو كان من المعلم بعض الحذق في ارشاد الطفل وتدبيره لاستطاع الأخير أن يهتدي وحده في مغامض هذه المسائل . وعسى أن كثيراً من الذين تخرّجوا على النظام القديم يتلقون كلامنا هذا بالريبة والشك على أن أقوالنا مبنية على حقائق ليست بالقليلة ولا بالخاصة . وقد رأينا من الصبية من وجد في حل تلك المسائل من اللذة ما جعله ينتظر درس الهندسة كأنه أشهر حوادث الاسبوع . وقد سمعنا أثناء الشهر الماضي عن احدى مدارس البنات أن بعض فتياتها يتبرعن بجزء من وقت فراغهنّ لحل المسائل الهندسية . وجاءنا عن مدرسة أخرى أن بناتها فضلاً عن ذلك قد أصبحت احداهنّ تنشد الناس شيئاً من المسائل الهندسية لتقضي في حله أيام الفسحة نذكر هذين الخبرين على مسئولية مدرسي هذين المدرستين وهما برهان دامغ على امكان التربية الذاتية وعظم فوائدها . وهكذا يصبح أحد فروع المعارف الذي نجده مع التعليم الاعتيادي يابساً بل كريها — يصبح باتباع الطريقة الطبيعية لاذاً عظيم الفائدة . نقول عظيم الفائدة لان النتائج ليست قاصرة على اكتساب الحقائق الهندسية بل هي في الغالب تحدث تغيراً كبيراً في العقل وقد حدث مراراً ان من كان قد بلد ذهنه التمرينات المدرسية المعتادة بقواعدها الفكرية وواجباتها العسيرة واستظهاره المحفوظات أقول من كان قد بلد ذهنه ذلك ثم انقذه الحظ من انه يكون وعاء يتلقى كل ما يفرغ فيه واعتاض من هذه الحالة السيئة التنقيب والاكتشاف كان في ذلك ايقاظ لذهنه وتهييج . فمتى أفلحت الصلة والالفة (بين التلميذ والمعلم) في تخفيف تلك الهيبة والثبوط اللذين يحدثان من سوء التعليم وقام عند التلميذ من المثابرة ما يكفي لحل مسألة واحدة نشأ في الصبي من تحول الشعور ما يؤثر في جميع طبعه حتى يعود التلميذ قد وثق بنفسه وعلم انه يمكنه

كغيره أن يعمل عملاً . وكلما تتابعت مناجحه اضمحل كابوس اليأس حتى يلقى مصاعب سائر الدروس ببأس شديد ضامن للنجاح

وقبل طبع ما أسلفنا من الكلمات خطب الاستاذ تندال عن أهمية علم الطبيعة بصفته أحد فروع التربية . فجاء قوله مصداقاً لما أوردناه . وأنعم بشهادة ذلك الاستاذ لقيامها على المعاينة الذاتية فهي من عظم القيمة بحيث لا يسعنا الا ايرادها هنا وها هي :

« نيط بي سالفاً تعليم العلوم الرياضية فوجدت أن في تلقين مؤلفات أقليدس والهندسة القديمة على العموم ما يجذب أذهان الطلبة ويحلو في نفوسهم ولكني كثيراً ما كنت ألفت الصبية عن محتويات الكتاب وأعمد الى ملكاتهم في مزاولة ما لم يتضمنه صفحاته . وكان هذا التنكيب عن الطريق المضروب يحدث في اول الامر نفوراً عند التلاميذ حتى تبدو على أحدهم دهشة الطفل وسط القوم الاجانب . على أنه نفور لا يلبث أن يزول فاذا بلغ الشوط من التلميذ منتهاه شجعته بما ينقل عن العالم الكبير نيوتون اذ يقول أنه لا فرق بينهُ وبين غيره من الناس الا الصبر والاناة . أو ما ينقل عن ميرابو اذ يأمر خادمه وقد نسب الاستحالة الى أحد الاشياء — انه لا يعود البتة الى ذكر الكلمة السخيفة . فاذا بعث هذا الكلام في فؤاده الروح والأنس وفي جنانه الثقة والعزم عاد الى عمله باسم الثغر متهلل الجبين وهي طلاقة وان كانت لا تخلو من شائبة الشك الا انها دلالة على ثبات العزيمة وصحة النية على مزاولة العمل . حينئذ كنت أبصر الصبي قد توقدت عيناه فرحاً وانقلب اليّ وبه من الخبرة والابتهاج ما يقارب تلك الاريحية التي كانت تأخذ العالم أرشميدس لدى اكتشافه الحقائق ثم يصيح الغلام بي قائلاً « سيدي لقد حللت المسألة »

فاعظم بقيمة ما كان يهبّ حينذاك في نفس الغلام من الثقة بالنفس التي متى انبثت في مجموع التلاميذ ودبت في نفوسهم خطوا في سبيل الدراسة خطوة شاسعة مدهشة وكان من عادتي أن اخير التلاميذ بين مزاولة قضايا الكتاب وبين معالجة ما هو خارج عنه فلم يكن منهم مطلقاً انهم فضلوا قضايا الكتاب وكنت لا أبرح أمد لهم يد المساعدة ولكنهم لم يبرحوا يردون تلك اليد الممدودة . كيف وقد ذاق الصبية حلاوات الظفر الذهني فهم لا ينفكون يبغون من ذلك الزيادة . وطالما نظرت الحيطان منقوشة برسومهم والعمدان الى غير ذلك مما يدل على شدة شغفهم بذلك الفن . كل هذا وأنا من حيث ما يسمونه قواعد البيداجوجيا (علم التربية) فارغ الوعاء لا أعلم شيئاً مطلقاً. ولكني أخذت بالقوانين الطبيعية واجتهدت أن أجعل الهندسة من وسائل التربية لا من فروعها وقد توّج الله عملي هذا بالفلاح وكان من أسعد أوقاتي تلك الساعات التي كنت أقضيها في هذه الدروس أرقب فيها تفتح أذهان الصبية ونماءها » انتهى كلام الاستاذ تندال

ويحسن الان بنا أن نضيف بعض كلمات بخصوص هذين المبدأين الكبيرين أهم مبادئ التربية وأقلها نصيباً من العناية والالتفات أعني مبدأ كون التعليم يجب أن يكون في جميع أدوار العمر تعليماً ذاتياً أي ان التلميذ يكون أستاذ نفسه ولا يكون المعلم الا دليلاً . ومبدأ ان تكون حركة الذهن أثناء التعليم لاذة دائماً . واذا كانت قواعد البسيكولوجية (علم النفس) تقضي بأن يتدرّج المعلم من البسيط الى المختلط ومن غير المحصور الى المحصور ومن الذاتي الى المعنوي أصبح المبدآن اللذان هما كون التعليم ذاتياً وكونه كذلك لاذاً معيارين يعرف بهما أيعمل بأحكام البسيكولوجيا أم هذه الاحكام لا تتبع .

وحقاً اذا كانت هذه القواعد أعني التدرّج من البسيط الى المختلط ومن الذاتي الى المعنوي ومن غير المحصور الى المحصور اذ كانت هذه هي أهم أحكام علم « النماء العقلي » فان المبدأين السالفي الذكر أعني كون التعليم ذاتياً وكونه لاذًّا هما أهم أحكام « صناعة احداث النماء العقلي » لانه اذا كانت طبقات الدراسة مدرّجة بحيث لا تحوج أو لا تكاد تحوج التلميذ في صعودها الى مساعدة الغير فلا بد أن تكون هذه الطبقات الدراسية مطابقة لطبقات النماء الذهني . وكذلك اذا كان تدرّج التلميذ في هذه الطبقات مصحوباً باللذة نتج أن هذا التدرّج لا يكلف ذهنه من العمل الا المقدار الصالح الموافق

هذا وأن في جعل التربية عملية نماء ذاتي فوائد أخرى خلاف صحة ترتيب الدروس . أولها ان هذه الطريقة تجعل لآثار التعليم في الذهن من التمكن والوضوح ما يضمن لها البقاء وهذا ما لا تفيده الطرق الاعتيادية . فكل فائدة يستفيدها التلميذ بنفسه وكل مسألة يحلها بذاته يصبح لها أكثر ملكية مما لو كانت أتته بطريق آخر . ثم يكون من النشاط الذهني الذي يستلزمه النجاح في استفادة المعارف وحل المسائل ومن استجماع الذهن الذي هو كذلك من شروط ذلك النجاح ومن الطرب الناشئ عن النجاح المذكور يكون من كل هذه ما يسجل الحقائق في ذاكرة التلميذ بكيفية لا يستطيعها مجرد سماع المعلومات من أفواه المعلمين أو أخذها من بطون الكتب وأجواف الكراسات . بل لو خاب التلميذ في عمله لكان فيما وصلت اليه الملكات بالكد والجهد من فرط الحدة واليقظة ما يثبت الجواب — عند اعطائه — في الذاكرة تثبيتاً لا يفي به كثرة التكرار مع عدم اجهاد الملكات . ثم اذكر ان هذه الطريقة تستوجب استمرار تنظيم المعارف المكتسبة . وان الحقائق والنتائج المستفادة على هذه الصورة

تكون من طبعها مقدمات لنتائج مستأنفة أعني وسائل لحل مسائل جديدة حتى يكون حل مسألة الامس عاملاً في تحصيل مسألة اليوم و بذلك تتحول المعلومات لاول دخولها في الذهن الى غذاء يذهب في تكوين الملكات وانمائها فتكون هذه المعلومات في الحقيقة عوامل للتفكير وليست مجرد سطور مخطوطة على صحيفة الذاكرة كما هي الحالة في طريقة الاستظهار (الحفظ غيباً) . ثم اذكر أيضاً ما تستدعي هذه الطريقة طريقة التعليم الذاتي من التربية الاخلاقية . هذه الخطة التي تحمل الذهن على الكد في طلب غذائه تولد عند التلميذ الجرأة على اقتحام العقبات. واستجماع الذهن في صبر وأناة. والمثابرة رغماً من الخيبة والاخفاق وهذه صفات يحتاج اليها مستقبل حياة التلميذ .

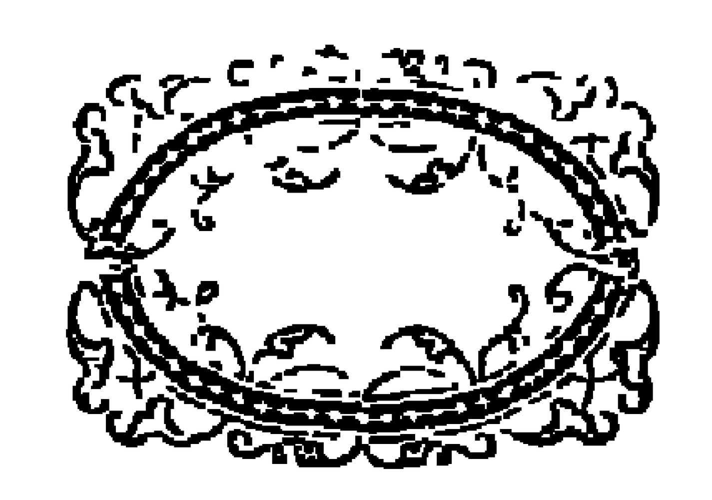
ولنا كلمة كذلك عن المبدأ الثاني أعني كون طريقة التعليم يجب أن تبعث في التلميذ نشاطاً لاذاً — ليست لذته لحسن نتائجه بل لكونه نشاطاً صالحاً صحيحاً في ذاته . واتباعنا هذا المبدأ فضلاً عن منعه أيانا من الاخلال بالرقي الطبيعي للذهن ترى له كذلك فوائد كبيرة . فانه ما دمنا لا نعود الى الآداب القاضية على التلميذ بالحرمان والزهد — هذه الآداب التي هي أجدر ان تسمى قلة آداب — ما دمنا لا نعود الى ذلك كانت موالاة اللذة للتلميذ في ذاتها من أكرم المقاصد وأشرف الاغراض. وحقاً ان الشعور اللاذ لأحث لحركة الذهن وأنهض لنشاطه من شعور الفتور أو الكراهية. وليس أحد الا ويعلم ان كل ما لذ للانسان قراءته أو سماعه أو رؤيته كان أعلق بالذاكرة مما يكره على رؤيته أو سماعه أو قراءته . فان الملكات في حالة اللذة تنشط الى ما يعرض عليها وتخف له . أما في حالة الاستكراه فانها تباشر الدرس في كسل وفتور بيد أن الذهن يكون نهباً للهواجس الخائبة وغنيمة للخواطر الجاذبة. ثم أضف الى ذلك ما يوجده

الدرس الكريه عند التلميذ من خوفه ما عساه يحدث من الشر والاذى لعجزه عن اتقانه واجادة فهمه . فيطير ذهنه من ذلك الخوف شعاعاً وتتضاعف بذلك وعورة الدرس و يزداد بعداً على المدارك. ينتج من هذا أنه على قدر لذة الدرس يكون فلاح التعليم بشرط ان تتبع سائر المبادئ التعليمية الصحيحة .

وليذكر الناس كذلك أن للذاذة الدرس أو لكراهته نتائج اخلاقية خطيرة . والذي يقارن بين وجهي التليذين — المتلذذ بالدرس الرائق الشائق والمتأفف من الدرس البغيض الممقوت يزيد ألمه العجز والوعيد والعقاب — أقول من قارن بين وجهي هذين وحاليهما حكم بأن طباع الاول تنعم وتصلح وطباع الثاني تشقى وتفسد . وكل من لاحظ ما للنجاح أو للخيبة من التأثير في الذهن وما للذهن على البدن من السلطان ابصر أن في حالة اللذة والنجاح خيراً وفائدة للزاج والصحة وفي عكس ذلك خطراً من الكآبة الدائمة والجبن المستمر بل خطراً من ضعف في البدن مزمن ووهن لازم . وثم نتيجة أخرى لكراهة الدرس عظيمة الأذى وهي أن علاقة التليذ بالمعلم — بعد توفر اسباب التعليم الاخرى — تكون ودية نافعة أو عدائية ضارة على حسب لذة الدرس أو بشاعته . والانسان بطبيعته يتأثر بما توردة عليه الذكرى من الافكار المتسلسلة المصطحبة أو كما يقول الفلاسفة الانسان خاضع لقانون اصطحاب الافكار وتسلسل الخواطر . فالمؤدب الذي يتولى عذاب الصبية لا يخمد له في قلوبهم لهيب البغضاء والذي يتولى اعانتهم وقضاء حاجاتهم وتمهيد سبلهم وتذليل عقباتهم والفرح بفلاحهم ذلك خليق منهم بالالفة والحب . ولا يخفى ما للالفة من حسن التأثير في سياسة التعليم ونظامه . وقد قال الاستاذ بيلانز « اذا أجري تعليم الاحداث طبق الواجب كان اغتباطهم بالدرس مثل اغتباطهم باللعب بل

ربما كانوا أشد اغتباطاً بتمرين القوى الذهنية منهم برياضة العضلات »

وآخر ما نذكر من مزايا جعل التعليم ذاتياً وبالتبعة لاذاً هو أن التعليم الذاتي لا ينقطع بانقطاع الدراسة المدرسية. والتعليم مادام اجبارياً كان خليقاً أنه يهجر متى رفع عن التلميذ قهر الوالد والمؤدب والعكس بالعكس. واذا صحت قوانين تسلسل الخواطر. وصح أن الناس يبغضون كل ما ذكرهم مؤلم الحوادث وسيء الاحوال — صح كذلك ان الدروس البغضية تبغض العلم الى الطالب كما أن الدروس الحبيبة تحبب اليه العلم



التربية الاخلاقية

لم يهمل ولاة الامور شيئاً اهمالهم انعام الفكرة في تأديب اطفالهم وتعويدهم ماحسن من الخصال وطاب من الخلال ولعلهم ظنوا الامر هيناً والخطب سهلاً فحسبوا انهم قادرون بلا فحص ولا بحث ان يودعوا طبائع صبيانهم ما شاؤا من المناقب ولم يعلموا ان علم تهذيب النفوس علم صعب المأخذ وعر الملتمس وحق لمغفله ان يخيب في تأديب غلامه ومن نكب عن سواء السبيل كان حرياً ان يضل ومن عسف المسلك الخشن بلا سراج لقى الويل فترى الامهات اذا أوصين الابناء بشيء لم تكن الوصية نتيجة تمعن وتدبر يجريان على منهاج الحق والصواب بل كانت نتيجة الوجدان الاقوى وقتئذ والشعور الاعلى سواء كان ذلك شعور ارتياح أو وجدان غضب ثم تختلف اوامر الام ووصاياها باختلاف هذه الوجدانات فاذا صحب هذه الوصايا قواعد أو سنن فانما هي ما توارثته الاجيال أو الهمته ذكرى الطفولة أو تذكرته الأم عن الخدم والمربيات وكلها قوانين سنها الجهل لا العلم ولقد ذكر ريتشار كلمة عن تضارب آراء الآباء في وصاياهم الى الابناء فقال لو جمعت وصايا اكثر الآباء وجعل منها كتاب لتهذيب الابناء لجرى الكتاب على الاسلوب الآتي :

(١) ألا ترى أيها الطفل ان أباك يفعل كذا وكذا

(٢) أيها الطفل انت صغير وهذا عمل الكبار

(٣) اهم الامور ان تسبق في مضمار الحياة وترتقي في درجات الحكومة

(٤) ليس قيمة المرء مقدار نصيبه من مفاخر الحياة الدنيا وانما قيمته حظه من الآخرة

(٥) لذلك كان الافضل احتمال الظلم والاخذ بالعفو

(٦) من اعتدى عليك فاعتد عليه

(٧) لا تحدث ضوضاء أيها الغلام

(٨) لا يجب ان يتمسك الاطفال بالسكوت

(٩) يجب ان تطيع والديك

(١٠) وتعلم نفسك

فيكون مثل الوالد في ذلك مثل الممثل المازح الذي يظهر على الملعب حاملاً تحت كل ابط حزمة من الورق فاذا سأله المتفرجون ماذا تتأبط اجاب احمل تحت الابط الايمن اوامر وتحت الايسر الغاء هذه الاوامر

وتلك حال لا يرجى سرعة تبدلها ولا يؤمل تغيرها الا بعد أجيال فهي كالنظامات السياسية لا تصنع بل تنمو من ذات نفسها كما تنمو الشجرة ثم لا يحس في الاوقات القصيرة نموها على ان ذاك النمو يحتاج بعد الى وسائط ومن هذه الوسائط البحث. أقول لست ممن يعتقد رأي اللورد بالمرستون ان الاطفال أخيار بالطبع بل ربما كانت عقيدتي الى عكس ذلك أجنح وأميل ولا كنت ممن يطابق الزاعمين ان الاطفال قد يبلغون بحسن السياسة أعلى منتهى الصلاح كلا بل كنت ممن يرضى ببقاء المساوي والنقائص اذا نجح لطف التدبير في حذف بعضها وبتر شطرها. أما من ذهب الى انه قد يبلغ الكمال باحكام الذرائع واحصاف الاسباب كان جارياً على سنن الشاعر الكبير شيلي الذي نقم من العالم عوائده ونظاماته وهتف بالناس ان اطرحوا سيئ عقائدكم واهدموا منكر

حكوماتكم تبدلوا من بؤسكم نعمى ومن خوفكم أمناً ومن ضيقكم فسحاً وكلا المذهبين غير جائز عند من تأمل أحوال البشر غير منفعل النفس ولا مستثار العواطف على انه لا حرج علينا ان نسعد بنياتنا وضمائرنا من اصبح لفرط حبه بني آدم وشدة عطفه عليهم يرجو لهم الكمال والسعادة وصرفه فرط التشبث بالامال عن كل شيء سوى ذلك . وفرط الولوع بالشيء البالغ حد التعصب الاعمى أمر لا بد منه لنجاح المطلب فانه لا شيء أبعث للعزم ولا أحث للهمة من الولع والشغف ولولا اعتقاد الانسان امكان مطلبه الذي أغرم به لما خطا خطوة في سبيله ولولا تلك الثقة العمياء التي تملأ الافئدة لما أخذ المصلحون قديماً وحديثاً في نقض ما نقضوا وابرام ما أبرموا على ان جهلهم في اعتقادهم امكان بلوغ الكمال ليس بضارهم فانهم وان أعياهم نيل الكل لم يفتهم الجزء ولولا ذاك الولوع المفرط وتلك الثقة العشواء لم ينالوا كلا ولا جزءا

ولو صح ان الاطفال قد تبلغ بذرائع محكمة أعلى ذروة الكمال ثم أحاط الآباء علماً بتلك الذرائع لكنا مع ذلك غير قادرين على نيل بغيتنا لانه لا يتأتى للآباء التمسك بهذه الذرائع والتوصل بها الى غاية المراد الا اذا توفرت فيهم شروط وخصال أهمها الصلاح وحسن الخلق والفطنة والذكاء وضبط النفس والقدرة عليها عند الحاجة مما لم يجتمع في آدمي أبداً ولقد نرى الناس ينسبون الهفوات والعيوب للاطفال ويخلون الآباء منها شأنهم مع الحكومة اذ يبرئون الولاة من كل عيب ويسمون الرعية بكل شين فيا عجباً كيف تتغير أخلاق الآباء عند معاملتهم الابناء وعهدنا بالاخلاق ثابتة لا تتغير . انا لنعاشر الناس ونعاملهم ونعلم انهم ذوو عيوب ونقائص لا تنفك تبدو لنا في بذاءتهم ووقاحتهم وخياناتهم وحمقهم وقسوتهم ومهانتهم وذلهم فاذا نظرنا اليهم من وجهة معاملتهم

الاطفال نزعنا عنهم كل سوأة وعورة وألقينا الذنوب على الابناء ظلماً منا وغشماً والحقيقة ان سوء معاملة الآباء أصل أكثر ما ينسب الى عناد الاطفال وشكاستهم

فأي خلة حميدة تستفاد من أم تهز رضيعها وتزجره لامتناعه عن الرضاع وكيف يتعلم العدل من أب يوجع ابنه ضرباً اذا سمعه يتأوه من ألم صدمة أو وقعة بل كيف يرجى العطف والرحمة من غلام حمل الى أبيه مخلوع أحد المفاصل فعالجه بالسوط والعصا فهذه الفعال وان كانت أقسى ما يأتيه الانسان نجدها مع ذلك عامة شائعة لا نحرم رؤيتها كل آن وهي تبين تلك الجبلة التي يشرك الانسان فيها فوارس الوحش والتي تدفع القوى من النوعين الى البطش بالضعيف وأين الذي لم ير احدى المربيات أو الامهات تلطم طفلها اذا بدا منه قلق أو عناد لاختلال في صحته . أين الذي أبصر احدى الامهات وقد عثر ولدها فجذبت بذراعه عنفاً وصاحت به تبا لك ثم لم يتبين في خلق الأم شراسة وحدة مزاج وسرعة حنق تؤذن بمستأنف تنافر بين الوالدة وغلامها وتنذر بمقتبل خلاف يفضي الى مشاحنات ومنازعات لا نهاية لها أليس فقد الحنو وعدم الالفة وقلة الوفاق واضحة في حرمان الوالد ابنه كل مباح كمنعه من اللعب الذي تتوق اليه طبيعة الطفل ويحدث فقده ألماً في الاعصاب وكنهيه ان يمتع بصره بما يقر عينه من أنيق المناظر مثل ما يبهج ناظرك اذا أشرفت من نافذة القطار على ناضر الرياض ومونق البساتين فقد ثبت من ذلك استحالة تعاطي خطة يضمن نظامها كمال آداب الانسان لعدم كفاءة الاباء

ولو وجدت الخطة الكافلة بالمراد وكمات في الآباء الكفاءة للأخذ بها لما افادنا نظام الاصلاح العائلي مع اختلال ماعداه من الاشياء . فهب أن طفلاً لم يزل به لطف التدبير ورفق السياسة حتى قوما اخلاقه وثقفا آدابه

وصقلا طباعه فبرز الى مزدحم الحياة اقوم ما يكون خليفة واعدل ما يرجى ضريبة واصفى ما ينتظر طبيعة أتراك تحسب انه يصادف نجاحاً أو يلقي فلاحاً وسط الجمهور وغالبه من الغلاظ الفظاظ القساة اللئام الجفاة السلائق ممن استغرقوا الخبائث واستوعبوا الرذائل ام تكون حلاوة شمائله ورقة خلاله وطهارة سرائره نكبات تزيد شقاءه ونقمات تضاعف بلاءه وآفات تطيل عناءه

لذلك قضت طبائع الامور أن يكون نظام الحكومة المنزلية والحكومة العامة ملائماً لاخلاق الجمهور ان طابت الاخلاق حسن النظام وان خبثت ساء فاذا احتيل في تحسين النظام والاخلاق باقية على حالها من اللؤم والفساد أوشك ان يكون التحسين ضاراً . لذلك كان ما يلقاه الصبية من الآباء والمؤدبين من القسوة والخرق انما هو تمرين لهم وتعويد على ما سوف يكابدون من جهل الجمهور وعدائه اذا غامسوا حومة الفساد

فاذا قال قائل واغوثاه لئن كان الامر كما ذكرت ليكونن الاصوب ان يترك شأن التربية سدى فلا يفكر طرفة عين في سبيل اصلاحه قلنا له ولا كل هذا نحن اولى من حث على بذل العناية في تحسين نظام التربية الادبية وأجدر من رجا اصلاحه غير انا نقول ان تعديل هذا النظام لا يمكن أن يسبق سواه من التعديلات وانه لا يحصل الا تدريجاً وان ما يمليه الحق والمروءة من التحسينات اللازمة لهذا النظام يجب ان يتصرف فيه بحسب ما تقتضيه دواعي اخلاق الجمهور وعاداته وان هذه التعديلات لا يسهل اجراؤها الا اذا تحسنت طباع البلاد

فاذا عاد القائل فقال اذا كان الامر كما ذكرت فلا فائدة في وضع نظام صالح للتربية الاخلاقية اذا كان الجيل الحاضر أحط طباعاً من ان يستطيع

الاخذ باوامر ذاك النظام والعمل بوصاياه قلنا ولا كل ذلك فما انفع ان يكون ذلك النظام القيم برأيٍ من القوم الضالين حتى يجعلوه غاية يؤمونها ونهاية يقصدونها والا لجوا في جورهم وسدروا في ضلالهم

وبعد ما قدمناه من القول ندعو القارئ الى تأمل ما سنورده من ذكر اغراض التربية الاخلاقية ووسائلها وسنبدأ بايراد قواعد عامة نسأل القارئ اثناءها سعة الصبر وقلة الملل ثم نثني بايضاح تلك الوسائل

اذا عثر الطفل أو اصطدم فاحس ألماً كان ذلك زاجراً له ان يحذر تكرار الحادث المؤلم وكذلك اذا قبض على الجمر أو القى يده في ضرام الشمعة أو صب على جلده ماء سخناً كان من الألم الناتج درس لا ينسى ثم يبلغ من شدة تألمه ان لا يبعثه بعد على الفعل المنكر باعث فقد بينت لنا الطبيعة فيما ذكرنا الآن من الامثلة خير سنة تتبع في تأديب الطفل وما هي الا ان يكون جزاء المذنب من جنس جنايته حتى يكون له اقمع واقدع وقد يقول قائل وكذلك كل عقاب يوقعه الآباء بابنائهم هو من جنس جرائمهم فاقول كلا انما يرى ذلك الرجل البسيط الكليل الذهن الكهام اللب وأما من رمى الامور بطرف حديد فانشقت له المشكلات عن حقائقها ابصر بوناً بعيداً بين عقاب الآباء وجزاء الطبيعة هذا بيانه

انظر أولاً الى جنس العقاب الطبيعي تعلم انه اجدر بان يدعى ثواباً لا عقاباً فهو ليس كالعقاب الذي يسنه بنو آدم متكلفاً مصنوعاً ولكنه منع وكف تزجرنا به الطبيعة عما فيه ضررنا ولولاه عادت حياة المرء نهباً لأيدي الآفات والمحن. ثم اعلم ان هذه العقوبات على قدر الذنوب ان خف الجرم لان الجزاء وان ثقل الاثم اشتد العقاب فاذا عثر الطفل من خرق وعجلة فصدمه صادم لم تنله الطبيعة

من الألم بأكثر مما يستحق ليكون انهى له واكف. وهذا من الطبيعة انصاف وعدل ثم لاحظ أيضاً ان تلك العقوبات متواترة متواصلة ماضية مصممة تنصلت فتمر لا يعروها تلعثم وتصيب فلا نقي منها واقية ولا يعوقها عائق وهي مع ذلك صامتة خرساء لا تنذر بوعيد ولا تهديد فاذا شك الطفل اصبعه بشوكة وقع الألم فاذا عاد بالشك عاد الألم وهكذا اذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التصميم الذي لا ينصت الى استرحام ولا يصغى الى استعطاف ولا يعدى عليه ولا يستعاذ منه وقف عند حدود الطبيعة فأمن ونجا . ويزيد في فضل هذه العقوبات انها لا تخص الاطفال دون الكبار ولكنها زواجر وموانع تصرف الكبار عن طرق العماية الى سبل الهدى حين لا يجد الانسان والداً يزعه ولا مؤدباً يرشده فترى الفتى المأجور على عمل فتوانى في ادائه وفرّط في قضائه ينزع عنه العمل ويترك ليتجرع من الضر والفاقة الكأس التي ملأتها يده . والرجل المخاف وعده يفقد طوراً من فرص اللهو وتارة من فرص الجد ما يسوءه فقده ويحزنه فوته والتاجر الذي يغلي على المبتاعين بضائعه يوشك أن يفقد غالبهم فيوقفه الطمع عند حده والبائع اليقنة [1] الذي يحسن الظن بالمشترين فيبيعهم ساعه نسيئة فيلوون حقوقه والمساهم المخاطر المفرط في آماله كلاهما يتعلم الحذر والتروي اذا أسامه سوء منقلبه في الوبيل الوخيم . كذلك يسدر الجائر المضلل في عماهته ويمعن الحائر التائه في عمايته فلا يرعوي لنصح ولا يرتدع لوعظ فاذا تورط في الشر وهوى في الضر فلقي حد السيف الذي أرهف وصادف طرف السنان الذي ذرب عاوده الرشد وراجعه الحلم . فاذا أتيح له من ورطته الخلاص أخذ في المنهج القويم وتشبث بأسباب الهدى فلم تستغوه بعد فتنة ولم تستدرجه

(١) الرجل اليقنة هو الذي لا يسمع شيئاً الا أيقنه ويقال يقن وميقان أيضاً

خدعة. فحسب العقوبات الطبيعية ما ذكرناه من الفضائل وما بيناه من الحسنات

فما أجدر الآباء أن يجعلوا عقاب الطفل المسيء نتيجة ذنبه وعاقبة جرمه لا يزيدون فيها ولا ينقصون ولا يبدلونها بنتائج متكلفة وعواقب مصنوعة

وقد ينتصر للآباء من يقول ما عقوبات الآباء لاطفالهم الا طبيعية وما هي الا نتائج سيئاتهم وماذا يكون غضب الوالد وشتمه الطفل وضربه اياه الا العواقب الطبيعية لما جناه واقترفه

فأقول ليس قولك هذا بحق صريح وانما هو باطل مشوب بشيء من الحق ولا أعارضك في أن غضب الوالد أو الأم عاقبة طبيعية لاساءة الطفل وان ما يحدث ذلك الغضب في نفس الطفل من لواذع المضض ولوادغ الندم هو وازع قوي للطفل ثم أقول بعد ذلك ان وعيد الآباء للاطفال وشتمهم لهم وضربهم اياهم ربما كان غير مستنكر في حالة واحدة أعني بها حالة الآباء السيئي التدبير مع الابناء الاشراس ذوي العقوق والعصيان وقد قدمنا ان نظام التربية كنظام الحكومة كلاهما يلائم طباع المحكومين فالاطفال الفظاظ الاخلاق أبناء الآباء الفظاظ المعاملة لا ينقادون الا بالوسائل الفظة وخضوعهم لتلك الاحكام الفظة أعظم مرشح لهم للجهاد في معترك الحياة الفظة التي لا بد لهم من مكافحة أهوالها

أما أهل الطبقة المهذبة فلن تجدهم يسلكون بابنائهم ذوي اللين والدماثة الا كل خطة دمثة كفيلة بتهذيب الطفل وتأديبه

ولقد آن أن نفسر للقارئ بالامثلة ماذا نريد بقولنا ان عقوبات الآباء يجب أن تكون طبيعية لا غير طبيعية وسنصطلح على تسمية العقوبات غير الطبيعية بالعقوبات « الاجنبية »

من أشيع سيئات الاطفال وأعمها تشويههم رونق المنزل بتفريق لعباتهم في انحائه . فترى الطفل اذا منح لعبة مما يولع به الغلمان أو أهدي باقات من الازهار أو ما يشبهها من الطرف فشرع يبددها و ينثرها حتى يملأ بها البيت فشوّش نظام غرفه وشوّه وجوهها لم يعاقب المجرم على ذلك بأكثر من التوبيخ واللوم مما لا يجدي نفعاً ثم تعاني الأم أو احدى بناتها أو الخادمة ما تعاني من لمّ ما تشعث من هذه الاشياء وضم ما تفرق. فهذا العقاب ليس بطبيعي بل الطبيعي أن يلزم الطفل اصلاح ما أفسد فيجبر على جمع ما نثر من أضغاث الريحان أو تأليف ما فرق من آلات لهوه حتى يكابد عناء ما جلبته اساءته . على ان تنظيم المتبدد هو ما يجب أن يعقب تبديد المنتظم تلك حقيقة لا ننفك نشاهدها ماحيينا وأمر لا نزال نجربه . فما أحق الطفل أن يتمرن عليه من مبدأ نشأته ثم اذا أبى الطفل ان يصلح ما أفسد فوقعت الكلفة على بريء من جناية الطفل كان العقاب الطبيعي أن يحرم الغلام بعد من تناول تلك الاشياء والاستمتاع بها فاذا تاقت نفسه الى شيء منها فطلبه فقوبل بالرد والمنع شعر عند ذلك بألم شديد فاتك وحسبك بما يجد الانسان من العذاب اذا حرمت شهوته مبتغاها وحجزت صاديتها عن المنهل العذب وهي أظمأ ما تكون فهل بعد ذلك تأديب للسيء كلا . ثم يتعلم الطفل من ذلك انه انما تكسب الملاذ بالعمل والكدح وهاك مثلاً آخر

طالما سمعنا بعض الامهات وهي توبخ ابنةً لها لتوانيها عن موافاة أتراب لها ينتظرنها بفناء البيت حتى يذهبن جميعاً للنزهة في بعض الاطراف وهكذا يغلب السهو على مثل هذه الفتاة فلا تذكر لبس ثيابها حتى ينتهي اترابها من ذلك ويجتمعن للسير. عند ذلك تلعن الام ابنتها و يبلغ منها الغضب مبلغه ولا يخطر ببالها (بل ربما خطر الفكر فرفضته) ان نترك الفتاة تعاني شر ما

اكتسبته يدها ونحن نعلم ان التباطؤ يستوجب فقد فائدة كان يحرزها عدمه فتارة يفقد المتأخر صفوة ما يباع في الاسواق من الامتعة وتارة يفقد القطار فيتجرّع بذلك غصة أليمة فانما يحذر المرء الابطاء في حاجاته خشية ان يفقد بسببه فائدة أو فرصة . فلم لا يؤدب الطفل المتراخي في شؤونه بالحرمان فيذوق مرارة التواني فيحرص في مستقبله على انجاز كلما يتعاطى من أمره ولم لا تقضي الام وقد أحفظها تباطؤ ابنتها بحرمانها مصاحبة أترابها الى حيث يلهون وينعمن وفي ذلك مزدجر ومرتدع لن تراها في الشتم واللعن اللذين يكسبان الشعور جموداً وصلابة وصمما عن كل ناطق بخير وهاتف برشد

واليك مثالاً ثالثاً . اذا أتلف أو أضاع الطفل متاعاً له لقلة اهتمام به كان العقاب الطبيعي له ان يذوق حسرة الفقد كذلك تجزي الطبيعة من الرجال والنساء من جرّت غفلته ضياع شيءٍ من حاجته ولا نقصد بالمثال الذي ذكرناه الى أحوال صغار الاطفال اذ يتلفون لعباتهم لكي يعلموا كنه اللعبة وأجزائها وهي غريزة في الانسان اذا نظر شيئاً لم يكن رآه من قبل تولدت فيه رغبة شديدة الى فهم حقيقته فيحتال لذلك ولا يقر قراره حتى يصل علمه الى ما يستريح اليه وانما نقصد الى حالات كبار الاطفال الذين يعلمون كنه أشيائهم وفوائدها فاذا كان اهمال أمثال هؤلاء الاطفال داعياً الى تلف متاع أو فقد آلة فليس من الحكمة والصواب ان يبعث الوالد حنوه ورحمته على اعاضة غلامه بدل ما فقد بعد التوبيخ والشتم فان هذا عين الخطأ والخرق وانما العدل والقصد ان لا يعاض المذنب من مفقوده بدلاً حتى يألم لوعة الفقد والحرمان فيكون في مستقبل أيامه أضن بامتعته وأشد محافظة عليها

فهذه أمثلة ذكرناها وتوخينا فيها البساطة لنبين للقارئ الفرق بين

العقوبات الطبيعية والاجنبيةوقبل ان نعرض العويص الصعب من الامثلة نرى ان نظهر ما لهذه العقوبات الطبيعية على غيرها من الفضائل

فمن فضل هذه الخطة انها تفطن الغلام الى ادراك الاسباب والنتائج فاذا لزمها عاد ذلك الادراك قوياً كاملاً وخير للمرء ان يفهم العواقب عن خبرة من ان لا يزال يحذرها من مؤدبه . والطفل المفرط في أمره يستفيد مع ما يجنيه من سوء عاقبة التفريط حنكة كالتي يكتسبها الكبير من التجربة لا كالطفل الذي ان جنى جناية لم يؤتَ من الجزاء ما يريه سوء العاقبة فاذا كبر لقيت به صروف الزمن غراً مغفلاً واهن الحيلة. فاذا اعتاد الغلام أن ينتظر من سخط المؤدب عقاب جناياته كاد يعتقد أنه لا عقوبة على الذنوب الا سخط المؤدب فاذا زالت عنه مراقبة المؤدب فرفع عنه ذلك السخط ظنّ في ارتفاعه زوال مغبات الآثام فأقدم على الذنوب اقدام الآمن وخامة العاقبة فوقع في كل ضيق وكربة

قال خيبر بضرر هذه الخطة.« رأينا شباباً أساء المربون تأديبهم غلماناً فلم يبصروهم العواقب فنشأوا أغراراً حمقى لا تكف جورهم حدود ولا تدعم عملهم قواعد . أهمل رياضتهم المؤدبون صغاراً فراضتهم الخطوب كباراً . فمنهم من أذعن وانقاد ومنهم من جمح فأصبح حرب الامن والسلام وآفة البشر »

ومن فضل الخطة أيضاً أنها خطة عدل صراح لا يسع الغلام المذنب الا اعترافه بما تجري عليه من سنن القصد ومنهاج الحق ومن لقي من الجزاء نتيجة اساءته كان أحرى أن لا يعد نفسه مظلوماً من الذي يقع عليه العقاب الاجنبي فانظر الى الوليد الذي لا يبرح يتلف ثيابه غير مكترث فهو لا يألو تلويثاً لها وتمزيقاً ، أتراه اذا كافأه الوالد على ذلك بالضرب أو الحبس لا يعد

نفسه مضيماً مهضوماً. ثم هو الى أن يبيت يبكي شجوه ويندب مصابه أقرب منه الى التفكير في التوبة وعقد النية على الانابة ولكن لو أمر المجرم أن يصلح ما أفسد بقدر امكانه فينظف ما لوّث ويرم ما مزق فانه يشعر بعدل الجزاء ويرى ارتباط النتيجة بالسبب ثم اذا لزم المؤدب مع غلامه تلك السنة لا يغادرها قيد اصبع فنال المذنب شرّ عمله ألا تراه يصبح أشد اتقاء للذنوب واكثر تبصراً في العواقب وأخلق أن لا يحسب نفسه مظلوماً

ومن فضل الخطة أيضاً أنها تحمي الآخذ والمأخوذ بها من أن يملك أيهما الغضب فهي خطة بريئة الساحة من بوادر الجهل وفوارط الحنق لان الآخذ بها من مؤدب لا يكاد يغضب لجناية الغلام حتى يسكن من غضبه أنه لا بأس عليه مما جنى الغلام وأن المذنب ملزم أن يصلح ما أفسد وكذلك الطفل لا ينال من الالم والعذاب باصلاح الفاسد ما يحدثه الضرب والحبس ولن ترى أحمق من المؤدب الذي يعد كل جرم يأتيه الغلام اساءة لشخصه فيوقع نفسه بذلك في عناء دائم يزيده ما يتولاه بنفسه من اصلاح ما أفسد الطفل

وكذلك لا يحنق الطفل على والده اذا علم ان العقاب لم يحدث منه مباشرة بل رأى ان الوالد ما زاد على ان كان منفذاً لعقاب الطبيعة ولكنه يحنق على والده ويمقته اذا وقع منه العقاب مباشرة بالضرب أو الحبس. وليعلم القارئ ان الخطة أكفل بالنجاح لما فيها من المحاسنة والملاينة ولا يزال في الامثال السائرة ان الفلاح موكل بالملاطفة والفشل مقرون بالمخاشنة ولم ير أمر أخذ فيه بالعنف والغلظة فلم يعق ذلك من تمامه . على ان أفسد ما يكون العنف والغلظة اذا وقعا بين الوالد وولده لما في ذلك من أضعاف ما بينهما من صلة الحنان الذي لا يتم النفوذ الا به . ومن علم ان للطبيعة قانوناً يدعى اصطحاب

الافكار ومعناه اقتران الامور المتناسبة في ذهن الانسان أيقن ان البغض في نفس المرء مقرون أبداً بكل شيء يحدث أذى وألماً وعلى قدر الألم يكون اضمحلال الالفة حتى تذهب وتخلفها البغضة والنفرة فاذا دام على الولد عذاب الوالد محا أثر المودة من صدر الابن وأقام على طللها بيتاً للضغينة وكذلك اذا رأى الوالد من غلامه كثرة السخط والانكار وتبين في وجهه طول العبوس والتقطيب نزع من قلبه الحنان والعطف حتى يستحكم الجفاء والكره بين الطرفين

وخلاصة القول ان لخطة الجزاء الطبيعي على غيرها افضال أولها ما يستفيد الطفل بها من الحنكة لفرضها عليه التبصر في العواقب فيميز بذلك بين النافع والضار. ثانيها ان الغلام اذا رأى انه لم ينل من العقاب الا كسب يده كان جديراً ان يبصر عدل الجزاء. ثالثها انه اذا أقر بعدل العقوبة وانها من فعل الطبيعة لا من عمل انسان هانت عليه فلم يغضب لها غضبه لو كانت من صنع بشر وكذلك الوالد اذا ترك الطبيعة تجري في عقاب الغلام مجراها كان ذلك أحرى أن لا يوغر صدره ويهيج غيظه. رابعها انه اذا سكنت عواصف الغضب بين الطرفين خمدت في الجوانح نيران البغضاء واطمأنت القلوب وائتلفت

فاذا سأل سائل فقال لا ننكر صواب هذه الخطة في الذنوب الصغيرة فاذا أقدم الغلام على الكبائر كالسرقة والغش والظلم فماذا نصنع قلت قبل الاجابة عن هذا السؤال اذكر للسائل بعض أمثلة

كان لنا صاحب يعيش في بيت أخت له وقد تعهد بتربية ابن لها وابنة وكان لا يحمله على ذلك الا الحنان وصلة الرحم فأصبح الطفلان تلميذيه داخل المنزل رفيقيه خارجه فكانا يصحبانه في غدواته وروحاته فيتلبثون جميعاً على المعاهد ويتلومون على منابت الخضر والزهور ثم يقبلون على أديم الارض يفحصون

الثرى عن جذور النبات فيستخرجونها ثم يقبل الطفلان على خالهما فيوسعانه أسئلة عن خواص كل صنف من النبات مما يدل على فرط ابتهاجهما بما يباشران وفضل عجبهما مما يبصران فلا يألو الخال ريًا لغلة استغرابهما واشباعاً لسغب حيرتهما وناهيك بما في ذلك من السرور والفائدة

فلا جرم اذا أصبح الطفلان يجدان في خالهما مستماح لذة لا ينفد ومستقى منفعة لا ينزح وقصارى القول ان الخال أفضى من نفسي الطفلين الى منزلة لم ينلها أب ولا أم. فلما سألناه كيف بلغ من الوليدين ذاك المبلغ قال انما أدركت ذلك بأمور أنا مكتف بتفصيل أحدها الآن فاعلموا رعاكم الله بينما نحن سامرون بالدار ذات ليلة وقد احتجت الى شيء لي كائن باحدى زوايا المنزل فطلبت الى ابن أختي ان يذهب ليحضره اذا به قد بلغ من فرط اصغائه الى قصة تلقيها عليه عجوز من معارف أسرته انه أهمل شأني وأنعم اقباله على العجوز فلم أكرر عليه الطلب ولم أغضب بل لم يحدث بي أدنى تغير ثم قمت على هينة مني فمضيت في حاجتي وعدت بها فلما فرغت العجوز من قصتها وقامت انقلب اليّ الطفل يطلب ما عندي من الفكاهة والحديث فأعرضت عنه ولاقيته بانقباض وجفوة فشق عليه ذلك ولحقته لوعة وكرب وذهب لمكان نومه حزيناً نادماً فلما أصبحت سمعت وقع أقدام خارج حجرتي ثم طرق الباب ففتحت واذا بالغلام يحمل طستاً فيه ماء سخن فوضعه بين يدي ثم أخذ يتلفت ليرى ماذا بقي عليه ان يصنع لاجلي وقال بعد لحظة أين حذاؤك ياخالي أظنه في ساحة المنزل ثم خرج مسرعاً فعاد به على عجل

وبامثال هذا الفعل أمكنني أن أجعل له من الندم ولذع الضمير أبلغ مربّ وأنفذ مؤدب حتى قويت ارادة الغلام وعاد غلاباً على أهوائه قماعاً لشهواته

وقد أصبح هذا الخال اليوم أباً لذرية لا تعدو الحقيقة اذا قلت انهم أسعد خلق الله لرفق أبيهم بهم وحسن سياسته لهم فهم يجدون له من برحاء الشوق وجدان العاشق بالحبيب وينتظرون عودته انتظار المحب رجع الرسول فاذا رأيتهم ضحوة وقد تركهم لعمله رأيت ذوي لهف يكثرون التلفت الى البكرة واذا أبصرتهم عصراً وقد دنت أوبة أبيهم أبصرت ذوي ولع يتطلعون الى الاصيل ثم هم يشتاقون الاحد لخلو أبيهم يومئذ من العمل فترى الوالد يقود أولئك البنين بالكلمة فيستحثهم باللفظة اللينة ويكبحهم بالقولة الخشنة فاذا بلغه عند عودته ان أحدهم قد أساء أخاً له لم يعد ان يتجهمه ويعرض عنه فيجد الطفل في ذلك من الالم ما لم يكن يحدثه الضرب فيبكي طويلاً ويكون من تأثير هذه السياسة ان الطفل اذا غاب عنه أبوه لا يزال يخشى سخطه فيتجنب ما يسخطه حتى لقد يبلغ من بعضهم الحرص على طاعة الوالد في غيابه أنه لا ينفك يسأل أمه هل وقع منه ذنب يغير قلب أبيه . ولقد حدث منذ أيام ان أحد هؤلاء البنين دفعه فرط المرح في غياب أمه الى قص خصلة من شعر أخيه وجرح ذراعه بموسى فلما سمع أبوه بذلك تجافى عنه ليلته وصبيحتها فبلغ من تأثر الغلام لذلك الجفاء انه تضرع الى والدته وقد همت ذات يوم بالخروج فطلب اليها البقاء مخافة ان يجرئه غيابها على اتيان ما يسخط والده

ذكرنا ذلك المثال لنبين للقارئ كيف ينبغي ان تكون العلاقة بين الوالد والولد لما لها من عظم الشأن في علاج ما عساه يبدو في الوليد من منكر الخبائث على انه يجدر بنا قبل تناول هذا المبحث ان نظهر للقارئ كيف ان مسالمة الصبي ومياسرته قد يفضيان الى توليد الصحبة والصداقة بينه وبين أبيه

لا يرى الصبية في الامهات والآباء الا أناساً جمعوا لهم بين العداوة

والصداقة والصبية يعتقدون ذلك لما تشهد به دلائل الاحوال ثم لا يتحولون عن اعتقادهم وكيف وهم أبدا بين ملاطفة من الوالدين ومغالظة وتدليل وتبكيت ولين وعنف ومساعفة ومكابرة فيصبح الصبية لذلك مهبطاً لمتباين الآراء ومثوى لمتضارب العقائد فترى الام اذا قالت لابنها انها أخص أصدقائه اكتفت بالقول وفرضت على الصبي تصديقه اياها وباءت باعتقادها ذلك التصديق في الطفل ويفهم الوليد من أمثال قولها « اني أعلم منك بصالحك » وقولها « أنت قاصر عن ادراكها اليوم ولعلك ستشكرني غدا » وقولها « كل ذلك لمنفعتك » يفهم الوليد من أمثال هذه الالفاظ ان أمه أحرص الناس على نجاحه ثم يجد من فعلها ما يكذب تلك الاقوال ولما كان الوليد يقصر ذهنه عن ادراك ما عساه يكون من حسن عواقب قسوة الام ولكنه يدرك بحسه آلام تلك القسوة كان جديراً ان يداخله الشك فيما تدعيه الام من الاهتمام بصالحه والسعي في سبيل سعادته وكان الواجب على الامهات الا يغفلن عن ذلك ولا ينتظرن من الطفل اعتقاداً غير ما ذكرنا وكيف ولو اصبحت احداهن وسط أترابها بحالة طفلها فلقيت من أولئك الاتراب نهراً وعذلاً ولطماً ودفعاً لما عبأت وتلك حالها بما يعدها المؤدبات من حسن المآل وهناء العاقبة

ولننظر الآن صواب الخطة التي نوصي بها وما تنتجه من حسن العاقبة وتلك الخطة هي أن تحذر الام جعل نفسها آلة عذاب للطفل بل تتوخى أن جعل نفسها خليلاً حميماً له بأن لا تزال تحذره الوقوع في الضرر ولنضرب لذلك مثلاً ان طفلاً حمله فرط الولوع باكتشاف سرائر الاشياء أن يأخذ قطعة ورق ويحرقها في ضرام الشمعة ليقف على كنه هذا العمل فترى الام التي لم تعود فحص الامور كما هو شأن معظم النساء تسرع باختطاف الورقة من الغلام

وتنهاه عن العودة الى مثل هذا الفعل . أما اذا كان الله قد منّ عليه بأم راجحة العقل تبصر في فعل الغلام شغفاً باستطلاع الحقائق وتعلم ما يكون في منعها الغلام قضاء وطره من الضرر فتقول في نفسها : ان في منعي الغلام حيلولة دون ما كان يفيده من تجربة وقد يمكنني انقاذ الطفل من النار ولكن ما ذا يفيد هذا وماذا يؤمننا انه لا يعود الى مثل هذا الفعل مرة ثانية فيحرق نفسه حيث لا منقذ له فلا آمن عليه حتى يذوق ألم النار فيخافها ثم لا يخفى ما في منع الغلام من قتل ما عسى أن يكون فيه من روح التأمل والاستطلاع على أنه لا خوف عليه ما دمت معه ولست ناسية ما يداخل قلبه من بغضي اذا منعته لانه لا يشعر بالالم الذي أنقذته منه ولكنه يشعر بالالم الذي أحدثه به وهو عكس أمله وردع رغبته فلا جرم أن يحرج صدره عليّ وما عليّ الا تحذيره وتركه ثم انقاذه من جسيم الاذى ثم تعقب استنتاجها هذا بأن تنادي بطفلها أن ارجع عما أنت فيه فاذا أبى كما هو مرجح كانت عاقبة هذا الاباء جمة المنافع فأول فوائدها انها تفيد الطفل تجربة تكون أكفل الاشياء بسلامته وثانيها انها تفهم الطفل أن تحذير أمه اياه لم يكن الا لفرط اشفاقها عليه وحرصها على مصلحته فتزيد ثقته بها وحبه اياها

على انه يجب منع الطفل قطعياً اذا كان فيما يحاوله خطر كبير كاتلاف عضو من أعضائه أو نحو ذلك أما فيما عدا ذلك فيجب أن تتبع خطة التحذير والنصح لا خطة المحافظة والاحتياط ولا تخلو هذه الخطة من احداث محبة بين الوالد والولد أقوى وأشد مما هو كائن الآن بين معظم الآباء وأبنائهم

واذ قد بينا الآن ما تولده خطة العقاب الطبيعي من حسن الالفة بين الوالد والولد فلنعد الآن الى السؤال السابق وهو كيف تسلك هذه الخطة في

الذنوب الكبيرة. فاعلم بادئ بدء ان هذه الذنوب الكبيرة أنزر وقوعاً وأصغر خطراً مع الخطة التي نحن بصددها منها مع خطة العقاب الاجنبي فان سوء الخلق في الطفل الذي هو أصل الجرائم انما هو نتيجة تهييج غضب الطفل واثارة بغضه بالعقوبات غير الطبيعية التي يعتدها الطفل ظلماً وعدواناً فان النفور والوحشة اللتين يجلبهما تواتر العقاب الاجنبي على الطفل يضعفان رأفته ويغلظان كبده ولما كانت الرأفة عقالاً للسيئات كان في زوال الرأفة انطلاق هذه السيئات بالشر والأذى على كل من قدر عليه الطفل ولا عجب ان ترى الوليد الذي تلك حاله يكثر ايذاء اخوته واقاربه فانما يحمله على ذلك أمور اضطرارية منها التقليد الذي هو من غرائز النفس ومنها انه مغيظ محنق وغر الصدر يتلهف للانتقام لنفسه ولما كان لا يحدث نفسه بالانتقام من ظالمه أصبح لا يستريح الا ان يوقع انتقامه بشخص آخر فهو لا يزال يطلب العلل لعشرائه حتى يلصق باحدهم علة بحق أو باطل ثم ينفث على ذلك المتهم ما أوغر صدره من سم الظلم والجور فينفحه نفحة الافعوان الصل

ولو عومل الطفل بالرفق واللين والعقاب الطبيعي لقام الارتياح والطمأنينة في صدره مقام القلق والغيظ فكان أرفق بعشرائه وكذلك الذنوب التي هي أخطر وأكبر مثل السرقة والكذب لا تروج مع خطة العقاب الطبيعي وقد نرى ان النفور العائلي هو مصدر عظيم لهذه الجرائم فمن أوضح القوانين الانسانية ان الشخص الذي يحرم الملاذ الطيبة يحرص على الملاذ الخبيثة فمن فقد الملاذ الودادية طلب الملاذ الذاتية ولذلك كان تمتع الاطفال بمناعم المودة الابوية يصرفهم عن التماس اللذات في مناديح الغش والدنايا

فاذا لم يكن في حسن معاملة الآباء زاجر عن اقتراف الكبائر كالسرقة

والكذب كما هو مشاهد أحياناً كانت خطة العقاب الطبيعي هي خير رادع وقادع فانظر بماذا تقضي العقوبة الطبيعية على السارق مثلاً . تقضي عليه برد المسروق اذا كان لا يزال لديه وبتقديم عوضه اذا لم يوجد عنده فاذا كان السارق هو الطفل لزمه أن يرد ما سرقه أو ينقص من راتبه ثمن المسروق

وفي ذلك تنغيص له يزيده غضب الوالد عليه . فاما ان يظهر الوالد غضبه بضرب الغلام وشتمه كما هو المعتاد في أصغر من هذه الجريمة فذلك كما أسلفنا وبيل الغب وخيم العاقبة فان فيه اقتلاعاً لجذور المودة من أفئدة الأبناء حتى يزهدوا في آبائهم ومتى زهد الابن في أبيه أصبح لا يعبأ بغضبه الا لما يصحب ذلك الغضب من الأذى فاذا وقع ذلك الأذى لم يحفل الطفل رضي أبوه أم سخط

ومتى بلغ الطفل هذه الحال هان عليه غضب أبيه بل ربما وجد في غضب أبيه روحاً على كبده وبرداً في حشاه فكان تمنيه هذا الغضب هو الباعث له على ارتكاب الجريمة وما ذاك بغريب لان الغلام يكره أباه وغضب من نكرهه سرور لنا أما اذا صفا قلب الغلام لابيه وصحت له مودته عد غضبه بلوى يطول لها كمده وندمه فلا يقدم على الجرم اشفاقاً على أبيه من لوافح الغيظ وصوناً له من لواسع الحنق فاذا أقدم مرة امتنع من العودة

فانظر الفرق بين الخطتين تجد ان ندم الطفل على ما فقد من رضى والده في أفضل الخطتين يقوم مقام العقوبة البدنية في أردأهما وبينما يكون في أسوأ الخطتين اثارة خوف الطفل وبغضه ترى ان أحسنهما تبعث أسف الغلام وحسرته على ما جنى وتحرك رغبته في اصلاح ما بينه وبين أبيه وهكذا تكون خطة العقاب الطبيعي صالحة سواء في الصغائر والكبائر ومليئة بكف الجرائم لا بل باقتلاع جذورها من نفس الطفل

والحق يقال ان الغلظة مجلبة الغلظة والرقة مدعاة الرقة ومن عومل بالقسوة أوشك ان يكون قاسياً ومن عومل بالرحمة فلا يعدو ان يصبح رحيماً والاستبداد العنيف سواء كان في حكومة المنزل أو حكومة البلاد جدير ان يدعو الى ارتكاب الجرائم . بينما يكون في الملاطفة والملاينة حسم الخلاف وارضاء القلوب حتى يؤمن الاقدام على الآثام

ونختم المقال بسرد عدة مواعظ نصوغها للايجاز على هيئة أوامر فنقول :

اقنع في تربية أخلاق الطفل بالسياسة الرفيقة والخطة الوسطى ولا تولع بالجهد العنيف والمذهب الاسمى واعلم أن المرتبة العالية في معارج الاخلاق لا تبلغ الا بالاناة والرفق فانك اذا علمت ذلك كنت ملياً ان لا يحرج صدرك مالا يزال يبدو لك من عيوب الوليد وكنت قميناً ان تقل من وعيدك وتلين من قسوتك عليه مما يوغر صدره عليك ويغذو ضغينته لك فاحفظ ذلك واجتنبه ما استطعت واعلم ان من أنجع الوسائل في تهذيب الطفل ان تعدل به عن طرق الاستبداد الذي يحدث في النفوس الطيعة خشوع الذلة وفي الابية شغب المغالظة

ثم لا تنس ما يقتضيه ايقاع العقاب الطبيعي من تسكين غضب المؤدب

ولقد يسوؤنا ان ما يأتيه معظم الآباء من تأديب الغلام انما هو القاء غضبهم على الاطفال باي صورة يخرج فيها ذلك الغضب . فاللطم والدفع والشتم الذي يفيضه المؤدب على غلامه انما هي دلائل غيظه وأحق بان تكون من وحي الاغتياظ لا من رغبة في اصلاح الطفل . فاذا تأنى المؤدب بعد وقوع الذنب برهة قدر اثناءها العقاب الطبيعي ووزنه كان له من تلك البرهة مسكن لغضبه فضبط نفسه وملك زمامها فسكنت ريح جهله ووقع طائر شره

ثم احترس ان يبلغ بك الوقار وقلة التأثر لافعال الوليد مبلغاً تكون معه كالآلة الصماء واعلم ان في ظهور الفرح والغم عليك في حالتي احسان الغلام واساءته حاثاً له على الخير وقادعاً عن الشر وما كنا لنحذر المؤدب وضوح دلائل السرور والحزن لما يأتيه غلامه وانما نحذره سورة الغضب وثورة الغيظ وما تستدعيان من العقاب المفسد . لا ترج لدى الطفل حظاً وافراً من البر وكرم الطباع فان الناس مهما بلغوا من التمدن فانهم نسل أمم متوحشة ثم لا بد ان يشبه ابن آدم في أصغر سنه أسلافه المتوحشين فتنم طباعه عن أخلاقهم كما تشبه صورة وجهه خلق أولئك السلف فيكون مفرطح الانف كبير الشفتين بعيد ما بين العينين الى غير ذلك وهذا سبب ما نبصر للاطفال من شدة الميل الى الظلم والسرقة والكذب ومن العجب ان هذه الخبائث اذا فقدت من المؤدبين من يقمعها فانها لا تلبث ان تتأثر بتغير صورة الوجه وان ما ينسب الى الاطفال من البراءة أمر صحيح اذا قصدت الى براءتهم من العلم بفنون الشر لكنه خطأ اذا قصدت الى براءتهم من غرائز السوء وأصدق شاهد على ذلك ان الاطفال اذا تركوا في احدى المدارس بلا مراقب كانوا أقسى على بعضهم من الكبار وكلما صغرت سنهم زادت قسوتهم

وليس من الصواب ان يطمح بالطفل الى أرقى درجات الاخلاق كلا بل ليس من الصواب ان يغالى المؤدبون كل المغالاة في حث الوليد على الفضائل فانه ليس من أحد الا ويعلم ما يعقب النبوغ العقلي في الاطفال من النقص فليعلم الناس أيضاً ان نبوغ الوليد في الفضيلة معقب أيضاً بنقص وضعف فان القوى الاخلاقية العالية في الانسان دقيقة التركيب ولذلك كانت بطيئة التكون لهذا السبب أصبح اسراع المؤدبين في اكمال هذه القوى يستدعي

بعض التعويق لنمائها فلا تبلغ حقها في القدر ولذلك ترى الفتيان الذين كانوا في طفولتهم أمثلة البر والكرم قد عرض لاخلاقهم على تقدم السن شيء من السوء والشر حتى أنزلهم من الاخلاق منزلة لا ترضي كما ان الرجال الذين تراهم أمثلة الفضل لم يكونوا في طفولتهم بمكان من المكارم

اقلل من أوامرك للغلام فلا تلجأ الى الامر حتى تجبر عليه فانك ان أمرت فعصيت كان عقابك للطفل أجدر بان يدعي انتقاماً لما نالك به من اساءة المعصية من أن يكون وسيلة الى تهذيبه ومن ذا الذي سمع أحد الآباء وقد طغا غضبه على وليده لعصيان أوامره وهو يصيح بالطفل «كيف جسرت على معصيتي ستعلم الآن من منا أشد وأغلب فيمتاز الحاكم من المحكوم» أقول من ذا الذي سمع أمثال هذه الالفاظ من والد لولده فلم يرَ فيها ذلك العتو والطغيان الذي يكون من السلطان المستبد الجبار لمن تمرد عليه من رعيته وكان أولى بالمؤدب الصالح أن يكون في رفقه بالغلام أشبه بالقاضي المصلح منه بالملك المفسد فيؤثر اجتناب القهر على الاخذ به. فاذا دعتك ضرورة الى الامر فأمرت بشيء فاطلب الى غلامك اجابته وتشدد في ذلك ولا يغلبنك عليه غالب ولا يستنزلنك عنه مستنزل واذ وجب عليك هذا لزمك ان تتدبر ما تقدم عليه من أمرك الغلام فتزنه وتتبصر في عواقبه وتنظر هل تستطيع الثبات على عزمك فاذا فعلت ذلك كله فانبذ الى وليدك الامر وألزمه بتنفيذه مهما كلفك ذلك من الضرر وليكن ما يصيب الغلام في حالة العصيان من عقابك مثل الجزاء الطبيعي لا مناص منه ولا راد لنازله فليعلم الطفل عن محتوم جزائك انه في لزومه أشبه بما يجد من حر الجمر اذا لمسه فكما انه يتق من الجمر بالالم اذا مسه يثق كذلك بعقوبتك اذا خالفك فيحترم قوانينك كما يحترم أحكام الطبيعة . واعلم ان من أخطر سقطات

التربية عدم الثبات على رأي لما يسبب ذلك من زيادة الجرائم وهي حال لا تزال تشاهد في البلاد التي لا ينهج فيها قانون محدد مضروب ولذلك كان أفسد المؤدبين وأضرهم من لا يكاد يرى الرأي حتى ينبذه أو يعزم العزم حتى يتركه فتراه أبداً يتهدد ولا يفعل ويعاقب على الذنب بعينه طوراً بالعنف وتارة باللين كما توحي اليه الاهواء القلقة الخفاقة فما أخلق ذلك الاضطراب والتقاب ان يسقطا المؤدب في عين وليده ويغريا الغلام بالاقدام على الاثم لما يطمع فيه عند ذلك من خفة العقوبة أو عدمها كل ذلك محدث فساداً في الخلق هيهات ان ينجع في اصلاحه طول المعالجة بالتجارب . وان خطة استبداد في التربية يلزمها المؤدب فلا يحيد عنها شعرة لخير من خطة رفق لا تلزم وقصارى القول انه يجب على المؤدب أن يجتنب العنف جهده فاذا وجد أن لا بد من العنف والاستبداد فليستبد

واعلم أن القصد من التربية أن تجعل من غلامك فتى يحكم نفسه لا آلة يتحكم فيها الغير . لذلك وجب عليك أن لا تزال تحذف من سلطتك عليه الجزء بعد الجزء فتبدله من تلك الاجزاء المحذوفة رأياً وحزماً في ذهنه يدبر بها نفسه . غير أنه يجب استعمال السلطة المطلقة مع الطفل اذا كان من الصغر بحيث لا يميز بين النافع والضار فاذا شبّ وترعرع فابذل جهدك في تبصيره العواقب ثم اعمل في التخلي من تدبيرك اياه تدريجاً واكلاً ما تتركه من أمره الى الطبيعة فاذا سلكت بوليدك هذا المذهب فبلغ رشده فاخلق به أن تراه فتىً قد عجم الدهر عوده وحاب أشطره . أما اذا عوّدت غلامك الطاعة العمياء لارادتك فلا ترج به اذا كبر ورفعت عنه سلطتك الا غراً طائش اللبّ خوار القناة لا يستقيم الا أن تقوده كما يقاد البعير

ثم لا يحزنك ما قد تراه للطفل من الاستبداد بالرأي فانه نتيجة ما منحته الاعصر الحديثة للطفل من الحرية ازاء ذلك القهر الذي كانت تذل له النفوس في القرون السالفة . واعلم أن الطفل الانكليزي الحرّ سيكون أبا الرجل الانكليزي الحر ولولا الاول ما كان الثاني وقدقالت أساتذة الالمان ان سياسة عشرة من صبية الالمان لأسهل علينا من تدبير صبي انكليزي لما لذاك الاخير من شدة الشكيمة وطماح العنان . أفيرضى الانكليز أن تصبح أطفالهم أسلس عنانا وألين شكيمة فاذا كبروا رأيت لهم خشوع الالمان وضرعهم ورقهم السياسي أم يود الانكليز أن يزيدوا طفلهم حرية فيعود رجلاً أبيّ الضيم حميّ الانف

ثم اعلم أن التربية الصحيحة عمل شاق عويص المطلب بل ربما كان أوعر الامور مسلكاً على أنه قد يقوم بالتربية أدنى العالم وأجهلهم فيحاولونها بالضرب والسبّ اللذين ربما تأتيهما الكلاب في زجر صغارهنّ . أما اذا أردت التربية الصحيحة فالتمسها في جملة وسائل كالاطلاع على كتب التربية واعمال الحذق في تدبير غلامك وتوخي الرفق في سياسته وتحري الصبر وتحدي الحلم واللين في معاملاته فيجب عليك أن تعمل الفكر في تمييز ما يأتيه الطفل عن لؤم وما هو مدفوع على فعله بطبيعته

ثم ينبغي عليك أن تعامل كل طفل بحسب طبعه ثم تغير في معاملتك متى آنست في طبع الغلام تغيراً وانتقالاً الى طور جديد ثم يجب عليك مع ذلك أن تلتفت الى نفسك فتنزهها عن العناد والاستبداد وحب السلطة . بلى انه ينبغي لك أن تقرن الى تأديب غلامك تأديب نفسك فاذا فعلت ذلك عادت مساعيك بالنفع لك ولغلامك

التربية البدنية

لشدّ ما يهتم أبناء الريف في هذه البلاد (انكلترا) بشأن حيواناتهم من ماشية وطير وكلاب حتى لا يكاد بعضهم يقابل البعض الا ويتفاوضون في أمر تربية هذه الحيوانات واكثار عددها والوسائط الكافلة لذلك بل يشارك الفلاحين في ذلك الاهتمام سكان المدن فلا يكاد مجتمع لهم يخلو من المحاورة في هذا الشأن

وعلى عناية أهل هذه البلاد بصالح حيواناتهم فانهم أشد ما يكون اهمالاً لمراعاة شؤون أبنائهم الصحية فمتى وجدنا أحدهم وقد تفقد اصطبله وحظيرة ماشيته ثنى بزيارة غرف أولاده فتفقدها واختبر ماكلهم ومشاربهم ومقدار ما يدخل الغرف من الهواء وسأل عن مواعيد الأكل ؟ ان أحدنا ليدخل مكتبة المزارع فيبصر على النضد من الكتب ما هو خاص بتربية الحيوانات وانماء الغرس وقواعد القنص مما يقرأ المزارع فيكون عالماً بمحتوياتها فما منهم الا يعلم خواص هذا العلف أو ذاك في تسمين الحيوان والنسبة بين فوائد التبن والعشب والخطر الناشئ عن الاسترسال في رعي الكلأ ولكن أي هؤلاء المزارعين يقرأ ما يختص بتربية الابناء أيهم يدري ما يحتاج الطفل اليه من الاغذية التي هي أفيد له وأكفل بصلاح جسمه وحفظ صحته . ربما احتج لهؤلاء الفلاحين من قال ان أشغالهم تفرض عليهم العناية بامر حيواناتهم الى حد يصعب معه الالتفات الى أمور أبنائهم البدنية فاقول ليس الامر كما تزعم ولو كانت أشغال الزراعة هي السبب في ترجيح الفلاحين مصالح حيواناتهم على

مصالح أبنائهم لكان سكان المدن الفارغون من هذه الاشغال براء من ذلك العيب على أنهم بعد موسومون به فقد لا نجد أحداً من سكان المدن الا ويعلم أن تسخير الفرس عقب الغذاء مضر بالفرس وهو مع ذلك لا يرى حرجاً في دفع ولده الى العمل عقب تناول الغذاء فاذا ليم الرجل على ذلك قال هذه أمور يترفع الرجال عن مباشرتها وما للرجال وشؤون أبدان الاطفال وانما فرض على النساء العناية بأجسام أطفالهن. فيا للعجب كيف يهتم الرجل المهذب المتعلم بتربية الحيوان ثم يرى تربية الانسان عاراً وسوأة وكيف يترك أمر تربية الاطفال للامهات اللائي لم يتعلمن غير اللغات والموسيقى وشيئاً من الفنون الكمالية ثم للمربيات الجاهلات المشحونات الاذهان بالعقائد الفاسدة القديمة. انه لامر خطير يضحك العاقل بما فيه من المباينة المدهشة على أن عواقبه من أوخم وأبكى ما أحزن

وقد قال كاتب حكيم ان أول أسباب النجاح في الحياة هو تقوى حيوانية الانسان هذا أيضاً أول أسباب ارتقاء الامم . وبيان ذلك أن صحة أبدان العسكر وشدتها مما يساعد على الغلبة والفوز وليس الامر قاصراً على ذلك بل نجد الامة أحوج في السلم الى هذه الصفة ولا سيما في هذه العصور التي ضاق فيها معترك الحياة واشتدت المزاحمة على موارد الارزاق فاصبح الغنم على قدر الكدح وعسرت العيشة على الضعيف الوهن الذي لا كدح له ولا سعي وهذا مشاهد في أمر التجارة فربح التاجر بمقدار كده ونصبه واحتماله أذى الاسفار ومشاق السير وتلويح الهواجر وعصفات القوارس ولقد نرى الالوف تنهد تحت هذه الفوادح فتموت ولو دام هذا الضيق على الازدياد لأودى بأقوى الرجال وأشدها: لذلك أصبح من الضروريات أن يعتنى بتقوية أجسام الاطفال حتى

يطيقوا حمل أعباء الحياة فيستقلوا بها

فقد رأيت أن اذكر كلمات عما يجب أن يتبع في تربية أبدان الاطفال معتمداً ما وضعه البحث من قواعد هذا العلم

لا يجهل القارئ ما يعقب الغلو في الامور من رد الفعل فزمن الثورات والخروج يتبعه في الغالب عصر استبداد تستبد فيه الحكومة بالحل والعقد والامر والنهي وزمن الفسق والفحشاء يتلوه وقت زهد وتقى وكذلك يجيئ بعد زمن الانهماك في المأكل والمشرب وقت صيام وحرمان اذ يلعن الناس فيه ما مضى لهم من عصر اطلاق الشهوات في ميادين الترف والرفاهة . كانت أسلافنا تعتقد أن حض الطفل على الازدياد من الطعام مصلح ولا تزال هذه سنة سكان الارياف حيث لا تبرح الآراء القديمة مخيمة في أذهان أهل تلك الجهات ولكن المتعلين من أبناء المدن يلجون في طلب النزوع عن هذه الخطة نزوعاً يفضي بهم الى اساءة غذاء أبنائهم وحرمانهم مما لا يصح أن يمنعوه . على ان نفورهم من عيوب أسلافهم أبين وأظهر في معاملاتهم لابنائهم منه في معاملاتهم لانفسهم فانك تجد أحدهم على تشدده في حرمان طفله تغلب عليه شهوته فيسيغ لنفسه ما يحميه ولده

أما كون تقليل غذاء الطفل واكثاره مضرين فذلك بديهي على أن أولهما أضر. وثانيهما لا يكون الا مع الالحاح على الطفل فاذا رفع عنه الالحاح لم يقع الاكثار. فالاكثار يعد هفوة الآباء لا الابناء

ورأي الآباء في قصر أبنائهم على قدر من الطعام محدود رأي طائش أسس على أوهن قاعدة وأوهى حجة. فلم لا تكون الشهوة التي هي قائد الحيوان في تعاطي غذائه وقائد الرضيع وقائد المريض قائداً أيضاً للطفل، بلى ان الشهوة

لنعم قائد الطفل في تناول مأكله والا فما أعجب أن يطرد ذلك القياس في سائر وجوهه ثم يشذ في أمر الطفل

ولعل قارئاً يغضب لقولي هذا فيقول لي أتوصي بأن يكون قائد الطفل شهوته وطالما ساءت الشهوة قائداً . وكم أذى كان سببه ارسال شهوة الطفل أتنكر ذلك وقد وضح الضياء وبرح الخفاء فأقول مهلاً أيها المناظر أما تدري أن تلك الحالات التي يؤذى فيها الطفل من قبل شهوته انما هي عواقب منعه وحرمانه وتلك سنة طبيعية تشبه نظيرتها التي ترى في حالة الشبان اذ يسترسلون في الملاهي عقب طول حرمان منها وتماثل أيضاً ما يشاهد في الكنائس من ركوب الراهبات سبل الغواية وركضهنّ في ميادين الباطل بعد طول الثواء في حجب التصون والتعفف وكذلك حال كل محبوس المآرب متى أتاح الله لها خلاصاً تهالكت على غاياتها أشد تهالك

ولننظر الآن نظرة فيما تطلبه شهوات الاطفال وما يعاملون به من أولياء أمورهم . تلهج الاطفال بالحلوى ولا يرى الآباء في ذلك الا غليل شهوة باطلة يطلب الاطفال قتله بتلك الالوان وشهوة ممقوتة كسائر الشهوات الحسية يجب أن تقمع . ذلك رأي الآباء الا الفئة القليلة ممن وفقوا الى الصواب وهو رأي مأفون جائر والحقيقة ان السكر من أهم ما يحتاج اليه جسم الانسان فان المواد السكرية والشحمية تنحل في الجوف فيمتزج بعض أجزائها بالاوكسيجين ويحدث الامتزاج حرارة هي جداً لازمة لصلاح الجسم ويدلك على شدة حاجة الجسم للسكر ان كثيراً من المواد التي لا يدخلها السكر تتحوّل في الجوف الى مواد سكرية حتى تحصل منها الفائدة المطلوبة

وليس ذلك هو السبب الوحيد في شغف الاطفال بالحلوى بل هناك

سبب آخر وهو ان شهوة الاطفال وطباع أجوافهم تأبى الشحم وقد قلنا ان الشحم مثل السكر في احداث الحرارة اللازمة للابدان فينتج من ذلك ان اقلالهم من الشحم يستوجب اكثارهم من السكر وان أجوافهم تطلب الكثير من السكر لضعفها عن هضم الشحم

والاطفال أيضاً مغرمون بالاحماض النباتية شديدو الابتهاج بالفواكه من كل صنف حتى لتجدهم يبتلعون الثمار الخضر اذا أعوزهم الناضج وليس ذلك لمجرد شفاء غلة الشهوة كما يظن الآباء ولكن لان الفواكه الناضجة من خير ما يصلح المعدة

فانظر أيها القارئ أي خلاف وتنافر بين احتياجات الاطفال الغريزية وبين معاملة الآباء اياهم وكيف يحرمونهم ويحمونهم ما تحتاجه طبائع تركيبهم وتطلبه ويعوضونهم الخبز واللبن في الصباح والشاي والخبز والزبدة في المساء مما تأباه شهواتهم وتنبو عنه اذواقهم ولا يعدم هذا الجور عاقبته من الشر فمتى كان عيد أو يوم لهو فأبيح للاطفال موائد الحلوى والفواكه ومنحوا من الدراهم ما يقرب لهم ما يشتهون مما يباع في الاسواق أو خولوا الرتع في احدى الحدائق هنا لك تديل الشهوات أنفسها من زمن الصيام والحرمان فيكون انطلاقها فيما ابيح لها بقدر انحباسها قبل وجمحها في سنن هواها على حسب حجزها ومنعها سيما وهي تعلم انها ستعود قريباً الى حالها من المنع والحرمان فهي حقيقة أن لا تضيع هذه الفرصة فاذا ظهرت مضار التخمة قال الآباء لن نترك الاطفال الى قيادة شهواتهم . فاعجب بان يكون سوء عاقبة الحرمان داعياً الى التمادي في الحرمان. ولو أبيح للاطفال قضاء مآربهم مما يشتهون لما جاوزوا الحد عند سنوح الفرص ولو جعلت الفواكه جزأً من غذائهم المعتاد لأمن الآباء ابتلاع أبنائهم الفواكه غير الناضجة

فقد رأينا انه لا ثقة بغير الشهوة في تغذية الاطفال وكيف نعدل بالشهوة وهي لسان المعدة ظن الآباء ولا علاقة له بجوف الطفل. سل الاب الذي يجيب طلب ابنه زيادة من الطعام بالمنع والنهر على أي سنة جرى وبأي شرع قضى وعن أي علم حكم فقضى. أناجاه مناج من معدة طفله أم هتف به هاتف من جوفه؟ ألا يعلم أن طلب المعدة زيادة من الطعام هو طلب له عدة بواعث عويصة المبحث بعيدة المتناول على الافهام مثل اختلاف درجة حرارة الجو ورطوبة الهواء وكهربائيته ومقدار التمرين البدني الذي تعاطاه الطفل قبل الغذاء ونوعه ومقدار الطعام السابق وصنفه وكذلك مقدار سرعة هضمه فكيف للاب ان يحسب نتائج هذه الاسباب المتعقدة المشتجرة ولقد سأل نفر من الناس أحد الآباء وقد أبصروا طفله أصح جسماً من أقرانه وأكمل صحة وأرفع قامة وأحظى بضيعاً(١) وأسرع حركة وأزهى لوناً كيف بلغت بطفلك هذا المبلغ من النماء والصحة فقال انما أجررت شهوته رسنها وأرسلتها ترعى كما شاءت بعد ما علمت أن هذه أصدق مني ظناً وأقصد حكماً فانظر أيها القارئ أين تواضع هذا الرجل للحق من كبرياء غيره من الآباء الذين يعتقدون انهم أولى بتدبير معدات الاطفال من الشهوة التي جعلها الله ميزان المعدة

وكذلك لا يبرح الجهل مقروناً بالغرور والكبر. ثم لا ينفك والعلم مشفوعاً بالتواضع والرشد ولا يزال الجاهل المغتر معجباً برأيه على سخافته مزهواً بفكره على ضلاله مزدرياً باحكام الطبيعة محتقراً شرائع الغرائز والفطر. وعلى قدر ازدياد المجتهد من علم الحياة يكون اتهامه بصيرته ورأيه واعتماده ما تبديه شواهد الطبيعة

---

(١) أسمن بدناً

ثم ننتقل من الكلام على كمية الغـذاء الى البحث في مادته وهنا أيضاً نرى ميـل الآباء باطفالهم الى الاطعمة التي هي أقل ثمرة وأنزر فائدة. فالرأي المعتقد المألوف لدى معظم الاهالي هو أن الاطفال لا يجب أن تعطى الا القليـل من الاغذية الحيوانية وذلك رأي أملاه الاقتصاد على من قلت ثروتهم فليس هو نتيجة بحث علمي ولا فحص فلسفي وانمـا هو قضاء الغايات وحكم الرغبات فمن عسر عليه شراء اللحم قال لأولاده انما اللحم من شر ما يطعم الاطفال أمثالكم. وكثر ذلك العذر حتى عاد قانوناً متبعاً

أما الاغنياء الذين لا يعبأون بأثمان المآكل فقد جنح بهم الى سنة الفقراء ثلاثة بواعث أولها التقليد ثم تأثير المربيات وهن من الفقراء ثم انكارهم مع سائر أهل البلاد عادة الاسلاف من الولع بالمأكل والمشرب

وليس لهذا الرأي كما ذكر أساس صحيح وقد يحتج البعض بان معدة الطفل ليست من القوّة بحيث تستطيع هضم المواد الحيوانية فأقول قد يعسر على معدة الرضيع التي لم تمنح قوّة عضلية أن تهضم اللحم على ان هذه المعـدة قادرة بعـد على هضم المواد الحيوانية الخاليـة من الالياف والانسجة. هذه حال الرضيع والاطفال الذين لم يبعد عهدهم بالرضاع فاما من جاوز الرابعة فقادر على هضم اللحم لاكتساب معدته في هـذا الحين القوّة العضلية وفضلاً عن ذلك فانه باحتياجات جسمه جداً محتاج الى اللحم وغيره من المواد الحيوانية وقد عرضنا هـذا الموضوع على اثنين من كبار الاطباء وعلى كثير من نوابغ الفسيولوجيين فاطبقوا على أن أغذية الاطفال لا يجب أن تكون أقل شبعاً من أغذية الكبار . كلاّ بل ينبغي أن تكون أوفر فائدة وثمرة

وبرهان ذلك واضح يتجلى لك اذا قارنت بين حركات الاعضاء الحيوية

في الطفل و بينها في الرجل لترى ان احتياج الطفل الى القوت أشد من احتياج الرجل اليه.لاي غاية يطلب الرجل الغذاء . انما يطلب الرجل الغذاء للاسباب الآتية ما يفقده الجسم كل يوم بجهد العضلات وكد الاعصاب عند إعمال الفكر ورقة الامعاء بدوام حركتها . كل هذه أسباب تدعو الى تعويض ما ذهب من البدن وأضف الى ذلك ما يمجه الجلد من حرارة الجوف وهو شأن كل جسم ذي حرارة . و بما ان استمرار الحركات الحيوية يستدعي حفظ حرارة الجوف كان كلما مج الجسم شيئاً من الحرارة أعيض باحتراق أجزاء مخصوصة من الجسم فأصبح الرجل لذلك محتاجاً الى ما يعوض به ما ضاع من بدنه يومه والى وَقود لاحداث الحرارة اللازمة للجوف في نفس اليوم . لهذين السببين يطعم الرجل . أما الطفل فدعو الى الغذاء بهذين السببين وثالث أبين وأجلى ولا ينكر من لاحظ ما للطفل من تواصل الحركة وكثرة المرح انه يفقد باعمال العضلات مع مراعاة نسبة حجمه الى حجم الرجل مثلما يفقد الرجل والطفل أيضاً يبذل من حرارة جوفه كما يبذل الرجل بل أكثر لان نسبة سطح جسم الطفل الى حجمه أكبر من عين هذه النسبة في الرجل . وثالث الاسباب وأظهرها أن الطفل يحتاج مع ذلك الى النماء فاذا اعتاض الجسم ما فقد ذهب ما فضل من الغذاء في بناء الطفل و بفضل هذه الزياده يكون نماؤه فاذا حصل النماء مع اعواز هذه الزيادة صحب هذا النماء ضعف في الجسم لعدم استيفاء الاعضاء انصباءها من العوض ثم لا يكون النماء في هذه الحالة كما ينبغي ويكفيك شاهداً على أن احتياج الطفل للغذاء أشد من احتياج الرجل اليه ان شهوة الرجل مهما مضت فانها أبلد من شهوة الطفل في عنفوان مضائها وهي بعد أسرع عودة في الطفل منها في الرجل

واذا لم يكفك هذا دليلاً فحسبك أن الاطفال في حين الجدب أقرب آجالاً من الرجال

واذا سلمنا بشدة احتياج الطفل الى الطعام المغذي بقي علينا أن ننظر فيما اذا كان الانفع أن يجعل غذاء الطفل مقداراً وافراً من الطعام الرقيق (المكون من مواد أقل تغذية) أو مقداراً أنقص من الطعام الغزير المادة (المكون من مواد أكثر تغذية)

لا أخال الجواب عن ذلك الا واضحاً بيناً . لا يشك أحد في أنه كلما خف عمل الجهاز الهضمي كان في ذلك استجمام[1] لقوى الجوف ووفر لنشاطها يعينان على النماء والحركة فاذا شغل الجهاز الهضمي مقدار عظيم من رديء الطعام أجهد ذلك الجهاز واستدعى مقداراً وافراً من الدم وكد الاعصاب وحسبك شاهداً على ذلك ما يعقب الاكلة الشديدة من فتور الاوصال وارتخاء الاعضاء على أن عاقبة ذلك في الاطفال أوخم وما هي الا ضعف القوى وقلة النماء أو كلاهما فيجب أن يكون غذاء الطفل غزير المادة سهل الانهضام

على اني لا انكر بعد انه قد تقوم حياة الانسان بالاطعمة النباتية دون غيرها ويرى بين الطبقات الراقية من الاطفال من لا يكاد يأكل اللحم وهو مع ذلك بادي النعمة جديد سربال الصحة وكذلك تجد بين أطفال الطبقات الصانعة كل ناشئ معجب القامة وهو لا يكاد يذوق المواد الحيوانية ولكن هذه الحجج داحضة اذا تأملت ما أنا قائل الآن . فاعلم أولاً ان وفرة النعمة في بكرة العمر لا تدل على ان صاحبها سيبلغ منتهى النماء والقوة في عنفوان شبيبته يشهد بذلك ما نراه من التفاوت بين فتيان الطبقات الصانعة وأمثالهم من ارباب الضياع في بلادنا وبين شباب الطبقة الوسطى وشباب الطبقة السفلى في فرنسا

---

(١) توفير

واعرف ثانياً ان الامر ليس قاصراً على حجم الجسم بل يجب أن يلتفت مع هذا الى نسيجه فقد يعجبك من رونق الجسم المسترخي مثل ما يروقك من رواء البدن المعصوب على ان الفرق ساطع اذا خبرت قوة كل جسدمنهما وقد يستوي في الاعين غير الفاحصة الطفل المكتنز المجدول والآخر الرهل المضطرب حتى يتصارعا فيفصل المراس بينهما وتعلمْ ثالثاً ان هناك فرقاً في النشاط والحركة ولا يخفى على المتأمل ماللطفل المتغذي باللحم على ذلك الذي يتعاطى البقول من فضل النشاط وخفة الاعضاء وذكاء القلب وتوقد الذهن

على أنا لو قارنا بين أنواع مختلفة من الحيوان او بين ضروب شتى من البشر أو بين افراد نوع واحد من الحيوان او صنف واحد من الناس عند اختلاف أطعمتهم لوضح البرهان على أن مقدار النشاط والحركة مترتب على مرراة مادته وغزارتها فالبقرة التي لا تجزأ (١) من العشب الا بمقدار عظيم لقلة نصيب العشب من غزارة المادة قد أمدها الله بجهاز هضمي عظيم الحجم تتضاءل أمامه أطرافها وتدب(٢) تحت ثقله فينفد معظم قوتها بين هضم القدر العظيم من طعامها وحمل ذلك الكرش الثقيل وتصبح لقلة ما بقي لها من القوة غاية في البلادة والكسل أما الفرس فلما كان طعامه أغذى وأجدى من طعام البقرة كان كرشه أصغر وأطرافه أمام ذلك الكرش مديدة ناهدة فاصبح بفضل ذلك التركيب ممتلئاً بالنشاط يعبث بأعطافه المرح واذا قارنا كذلك بين الضأن آكلة العشب والكلب آكل اللحم والمواد الدقيقية لرأينا أي فرق بين كسل الاولى وحدة الآخر وأين الذي جال جولة في حدائق الحيوانات فأبصر مايملأ آكلة اللحوم من الميعة والحدة ويشملها من القلق والحركة حتى لا يكاد يقر قرارها فهي دائبة الجولان في أقفاصها ثم لم يعترف

(١) تكتفي (٢) تمشى مشي النمل من البطء والثقل

بفضل الطعام الغزير المادة على السيئ

وقد يعترض معترض فيقول انما ذلك الفرق المشاهد في نشاط الحيوانات وحدتها ينشأ من اختلاف بناء الاجسام وخلقتها فأقول يبطل هذا القول ان ذلك الفرق قد يظهر بين أفراد جنس واحد ولنضرب مثلا ما نشاهد من أحوال الجياد المختلفة الغذاء . أنظر أي فرق بين فرس العجلات العظيم البطن البليد وجواد الحلبة الضامر الكشح الطامح العنان واذكر فضل طعام الواحد على غذاء الآخر ثم اترك الخيل الى البشر فانظر الى أهل استراليا الاصليين وأهل جنوب افريقيا وآخرين من أدنى المتوحشين العائشين على الجذور والثمار وأنواع الحشرات وغير ذلك من الاطعمة الغثة تجدهم قصارًا ضئالاً ذوي بطون عظيمة وعضلات ناعمة طرية لم تجدل جدل عضلات سواهم من آكلي اللحم فهم لذلك لا طاقة لهم بالاوربيين ولا كفاء اذا حسرت الحرب قناعها ولا غناء لهم اذا تعاطوا ما يتناول أهل أوربا من الاعمال وانظر بعد ذلك الى الامم المتوحشة التامة الاجسام الحديدة كفريق آخر من سكان جنوب افريقيا وكسكان شمال امريكا تجدهم مكثرين من أكل اللحوم

وكذلك يذل الهندي السيئ الغذاء للانكليزي الطاعم ماطاب منه وصلح فيكون دونه حدة جنان وشدة أعضاء وما برحت الامم الصالحة الغذاء يدا الدهر مظفرة غلابة

وأوضح ما تكون الحجة اذا ثبت لك أن هناك تفاوتًا في قوّة نفس الحيوان في حالتى امتلاء غذائه ورقته وقد سبق ذكر ذلك في أمر الخيل فقد يكثر لحم الفرس اذا اكثر من الكلأ ولكنه يفقد مع ذلك جزأ من قوّته كما

يظهر ذلك اذا جشم عملاً شاقا وقد قال أحد العلماء أن ارسال الخيل ترعى يحلل عضلاتها . وقال آخر ليس الكلأ لجواد الصيد ولكنه للثور الذي يسمن للبيع . وطالما لاحظنا في جياد الصيد عقب رعيها الربيع تخلفها عن الكلاب حتى تعلف الفول زمناً فتقوى اذ ذاك على ادراكها . وأضف الى هذه الادلة أنك اذا شئت أن تضاعف على فرسك عمله علفته الفول مما يثبت أن القوة والايد في طيب الغذاء وصلاحه

فاذا شئت أن تبصر هذه الحجة في البشر فانظر الى المقاولين الانكليز المشتغلين بعمل السكك الحديدية اذا دعوا الى العمل خارج بلادهم لم يروا بداً من استصحابهم عمالاً انكليزاً وما ذاك الا لان هؤلاء العمال لاعتيادهم اكل اللحم أنفذ في الاعمال وأغنى في الامور من امثالهم من أهل الممالك الاخرى الذين يتغذون المواد الدقيقية فكان العمال الاجانب يغارون من الانكليز فيبارونهم في أكل اللحم فيعودون بذلك اقراناً لهم وأكفاء وأضف الى ذلك تجريبي هذا الامر في نفسي اذ نبذت اللحم ستة أشهر وعكفت على الخضر والبقول فأحسست بعض ضعف في الجسم والعقل

أليس فيما ذكرنا من الشواهد مؤيد لبرهاننا عما يختص بالاطفال ؟ أليست هذه الادلة تعدل بالمتأمل عن الاغترار بما قد يكتسي الجسم من ظاهر النعمة الى انعام النظر في جوهر الجسد الذي يستدل به على مقدار الصحة والعافية ؟ اما تؤيد هذه الاقوال ما نريد اثباته من ان مدار القوّة والنماء على حسن الغذاء ؟ اما تثبت وجوب اصلاح الغذاء للطفل الملزم باعمال فكره وجسمه حتى يضمن مع النماء تعويض ما يفقده الكد والكدح وأن لا يغتر في أمر هذا الطفل بحالة المستريح الوادع من الاطفال الذي تكفيه المواد الدقيقية ويبدو

عليه أثرها من النعمة لقلة احتياج الجسم الى تعويض ما فقده — فيحذو بالمجهود حذو المستريح غفلة وعمى من ولاة الامور ؟ أما وقد وضح الصبح لذي عينين فلا عذر لمن لج في عمايته وسدر في جهالته

وقبل ترك هذا المبحث التمس ان اقول كلمة عن وجوب تنويع الاطعمة لقلة اهتمام المربين بهذا الشأن على ان اطفالنا والحمد لله لم يقض عليهم بما حكم به على عساكرنا من اكل اللحم المسلوق عشرين سنة ولكنهم مصابون بعد بالمداومة على بعض الالوان مما يخالف اوامر الصحة وليس ذلك عيب الغداء ولكن عيب الفطور والعشاء اذ لا ينفك فطور الاطفال من اللبن والخبز او العصيدة ويختم اليوم بنسخة ثانية من هذا المأكل وربما ابدلت بالخبز والزبدة والشاي على ان هذا مناف لقوانين الفيسيولوجية فالسامة التي تعتري الآكل من لون طال تكراره واللذة التي تنشأ من آخر طالت غيبته ليسا كما يزعم الناس بلا اصل ولا سبب فلقد ثبت من جملة تجارب انه ليس هناك طعام واحد يقوم بامداد الاعضاء الحيوية بحاجاتها من العناصر المختلفة على النسب الواجبة والصور الصحيحة حتى تصلح بذلك حركاتها بل ذلك لا يتم الا باختلاف الاطعمة واقرن الى ذلك ان اللذة الحادثة من تناول الطعام المشتهى تنبه الاعصاب فيشتد ضربان القلب فيحثث ذلك دورة الدم وهذا معين على الهضم ،

وكما يجب ان يغير الطعام من حين الى آخر كذلك ينبغي ان تتألف كل أكلة من الوان شتى فاذا طاب الدليل على ذلك فانظر هل يجد الجهاز الهضمي من السهولة في هضم مقدار من لون واحد ما يجده في هضم نفس المقدار اذا تألف من ضروب شتى

وعلى من اراد اتباع ما ذكرت ان لا ينتقل فجأة من المأكل السيء الى

ضده فان اعتياد المآكل السيئة يضعف الجهاز الهضمي فاذا فوجئ بالطعام المثري عسر عليه هضمه فوجب حينئذ ان يكون الانتقال من احدى الحالتين الى الاخرى تدريجياً فتكون كل زيادة في قوة الجهاز الهضمي داعياً الى زيادة في الغـذاء وخلاصة القول ان غذاء الاطفال يجب أن يجمع بين الوفرة والتنوع والمرآة

اما الملبس فقد يؤثر الآباء المبالغة في تخفيفه فيعود غير واف بالحاجة اليه يفعلون ذلك زهداً وتقشفاً و يعتقدون بوجوب مخالفة ما تطلبه الحواس زاعمين انها لم تخلق لهداية الانسان بل لاضلاله جهلاً منهم وخطلاً وما كان الله تعالى ليجعل من اجسامنا اعداء لنا واعواناً علينا وانما ينشأ الضرر من عصيان هذه الحواس لا من اطاعتها فليس على من جاع فاكل ضرر بل الضرر لآكل غير جائع ولا بأس على الشارب من ظمأ بل البأس على من عاود الشرب بعد شفاء غلته ولا اذى لمن اباح مناشقه صافي الهواء الذي يطيب للشم بل الاذى لمن اكره مشامه على تنشق ما خبث من الهواء ولا ينال الضرر من باشر الالعاب الجسمانية التي يطلبها الجسد كما هو مشاهد في الاطفال بل يرهق الضرر الذي يعصى طبع جسده وليس الشر من ارسال الذهن في مراتعه وقد بدا منه نشاط وميعة بل الشر في اكراهه على العمل وكده وقد تبين فيه الجهد والاعياء ولا تجلب الرياضة البدنية مضرة بل يجلب المضرة التمادي فيها بعد تبين النصب واللغب على اني اعترف بان الحواس تضل من عاش حيناً طويلاً على غـير اساليب الصحة ناكباً عن مناهجها فان الحواس اذا خولفت زمناً واجيبت بغير ما تطلب تطرق اليها الفساد فعادت لا يعتمد عليها وكذلك قد تضل الحواس لفسادها من قضى حقباً بين حيطان منزله يجهد ذهنه ولا يروض بدنه و يعاصي في تناول الطعام داعي معدته مؤتمراً بأمر ساعته وما كان ذلك الفساد لولا عصيانهم

دواعي طباعهم ولو أطاعوها منذ نشأتهم لما عدلت عن مناصحتهم أو نكبت عن مصادقتهم فمن الحالات التي تصدق فيها دواعي الحواس الشعور بالحر والبرد ومنكر أن تعصى في هاتين الحالتين أوامرها وقد يعتذر ولاة الصبية عن حرمانهم الاطفال ما يكفيهم من الثياب بأنهم يبغون بذلك تعويد أطفالهم الخشونة والقشف وماء ذلك اعتذارًا وبئست تلك خطة لا يلبث أن يصاب الآخذون بها اما بفقد أحد أطفالهم أو افساد صحة آخر أو تعويق نماء ثالث على ان أساس تلك الخطة أوهى من نسيج العناكب وذلك ان أغنياء الآباء اذا أبصروا أطفال الفلاحين تمرح في الفضاء عراة الانصاف وهم مع ذلك أصحاء الابدان أصحاء الآباء استنتجوا أن الصحة رهينة التعرض للهواء وعزموا على تخفيف ملابس أطفالهم ولكنهم لم يذكروا أن أبناء الفلاحين بدواعي عيشهم محفوفون بمزايا لا يجدها أبناؤهم من دوام تنشق خالص الهواء ومواصلة اللعب والمرح وقلة أعمال الذهن وان صحاتهم محفوظة ليس بفضل التعرض للجو ولكن بالرغم من ذلك التعرض وما يدريك أن صحاتهم لا تزداد حسنًا اذا زيد في ثيابهم. يؤيد ذلك ما نعلمه من قوانين الفيسيولوجيا (وظائف الاعضاء) من أن انتقاص حرارة الجسم ينقص من حجمه

وقد يكتسب الجسم الصحيح الشديد شدة من التعرض ولكنه ينقص نماءه وهذا بين سواء في الانسان أم في الحيوان فقد نجد خيل جزائر شيتلاند التي تكابد من قوارس البرد ما لا تكابد خيل البلاد الجنوبية أصغر أجسامًا من الاخيرة وهذا الفرق ظاهر في ذوات الاظلاف ثم نرى سكان الجهات القطبية أدق وأضأل من سائر البشر حتى لا يكاد الناظر اليهم يلحقهم ببني آدم

وقد أثبتت العلوم ذلك، وهو ان الجسم لا يزال يبذل شيأ من حرارته

ولاجل أن تعوض تلك الحرارة تتكلف المعدة أن تستخرج من الطعام أنواعاً من المواد لا فائدة لها سوى انها تحترق فتحدث حرارة بدل التي يفقدها الجسم والمعدة مع هذا العمل تصنع مما بقي من الطعام مواد تذهب في الجسم ولكن قوة المعدة محصورة فكلما أكثرت من عمل المواد المحدثة للحرارة أقلت من صناعة المواد المكونة للجسم فنتج من ذلك أن شدة التعرض للجو تكثر من اضاعة حرارة الجسم فتكثر المعدة من عمل المواد المحدثة للحرارة وتقل من مواد النماء فيقصر الجسم عن بلوغ ما ينبغي أن يبلغه من الحجم

ولما كان احتياج الطفل الى عوض ما يفقد من الحرارة يزداد كلما كان أصغر سناً كان ضرر البرد أبرح وأبلغ في الرضيع والحديث العهد بالرضاع وكم مولود مات ضحية حمله الى مكان تسجيل أسماء المواليد وقد قال أحد الاطباء ان موتى المواليد في شهر يناير ضعف موتاهم في شهر يوليو وموتاهم في الروسيا أكثر منهم في غيرها من ممالك أوربا فتأمل أي حمق وخرق هنالك في تخفيف ملابس الاطفال . ما ذا يكون جواب الاب الذي يعرض ابنه لاذى البرد أو يوافق على تعريضه اذا سأله سائل فقال خبرني أصلحك الله أيسرّك أن تسلب بعض ثيابك فتمشي في الطرق عاري الذراعين والساقين والعنق والترائب ؟ كلا فلقد أخالك الآن ترتاع من مجرد ذكر العرى فما بالك تبتلي طفلك بما أراك تجزع من ذكره ؟ ان ذلك لظلم منك وعدوان . وقد يقود حب التقليد كثيراً من الامهات فيملن بأطفالهن الى الثياب الخفيفة القصيرة مما يكون حديث الاختراع جرياً على السنن الاجد والمذهب الاحدث غير مباليات بما يعقب ذلك من الضرر . كل ذلك لموافقة أهواء المترفين ممن لا همّ لهم سوى زينة الملبس وما شاكلها وقد ينشأ أذى الملبس من شيء سوى حب التقليد وذلك ان

بعض الامهات قد يشغفن بالاكسية الموتقة اللون والنسيج فيلبسنها أطفالهنّ ثم يشفقن أن ينالها أدنى قذر أو شائبة فيجعلن من أنفسهن على الاطفال مراقبات لا يأتلين يلاحظنهم ويمنعنهم من كل ما يوده الاطفال من اللعب والمراح فتعود الاطفال من ذلك في أضيق سجن وأشد وثاق فنعوذ بالله من ذلك الغشم الصريح والحمق المحض ونسأله أن يوفقهم الى الاخذ بما قلناه وما نحن ملخصوه في هذه العبارة وهي ان ثياب الاطفال يجب أن تجمع الخواص الآتية : أولاً أن لا تكون من الثقل بحيث يجهد الطفل حرها . ثانياً . أن تقوم بدفء الطفل ثالثاً . أن تصنع من نسيج يضن بالحرارة مثل الصوف الخشن . رابعاً أن تكون من المتانة بحيث تبقى طويلاً على لعب الطفل ومراحه . خامساً . أن تكون ذات ألوان بطيئة النصول على كثرة تعريضها للجو

أما الرياضة البدنية فمعتنى بها في شأن البنين مهملة في أمر البنات وكفاك شاهداً بذلك أن تقارن بين مدرسة للذكور وأخرى للاناث فبينا تجد للاولى ساحة خلاء فيحاء تشتمل على كثير من آلات التمرينات الجسدية وبينا لا يزال يطرق سمعك من هذه الساحة أصوات البنين وهم أفرح ما يكونون ترمي بهم الميعة رمي الوليد بالمهزام ويقذف بهم المراح قذف الصوالج بالاكر اذ تبصر محل البنات مدرجاً في كفن من الوحشة هذا اذا ساعفك الحظ فشعرت بأن هناك محلاً للبنات أقول ذلك لاني ما كنت دارياً أن بجوار منزلي مدرسة لهن لولا أن سمعت بذكرها من بعض الاصدقاء فلما أبصرتها رأيت بها مكان ساحة اللعب حديقة ملتفة أثيثة لا تسمح للبنات بلعب ولا مرح وقد مضى لنا خمسة أشهر منذ علمنا بها فلم نكد نسمع بالمكان نبأة ولا رزا[1] وكنا نرى بحديقة المحل أحياناً

---

(١) صوتاً

بعض البنات ماشيات الهوينا يتقتلن[١] ويتلومن على بعض المعاهد وهن مع ذلك حاملات كتباً لهن ولا أنكر اني نظرت مرة فرأيت احداهن تجري في أثر صاحبة لها وما خلا هذه الحركة فالمكان بحمد الله ساكن صامت كبعض الرسوم والاطلال

فلم ذاك الفرق العظيم أتظن القائمات بتربية الاناث ان هناك بوناً بين خلقة الذكر وخلقة الانثى أم يحسبن ان ليس للبنات ما للاولاد من نوازع النفس الى اللعب واللهو أم يرين ان الله سبحانه وتعالى بينا جعل من تلك النوازع في الاولاد محرضات على الانهاك في اللعب خلقها في البنات بلا معنى ولا غرض . كلا بل أحسب ان للمربيات رأياً سوى ما ذكرت وذلك انهن يربأن بالبنات ان يكون لهن الخشونة والصلابة اللتين تجلبهما رياضة البدن ويرين ذلك أشبه بصفات السوقة والسفلة وانما تود المربيات ان تشبه بناتهن أولاد الملوك والعلية الاشراف ثم يرين أيضاً انه من تمام الجمال والظرف ان تزيد رقة الغادة وتنقص قوتها وتبلد للطعام شهوتها ويشتد جبنها ويضعف ركنها على ان ذلك المثال الذي يرغب المربيات ان يصغن بناتهن على شكله لا يعجب الرجال وان كان يروقهن ونحن لا ننكر ان الرجال يبغض المذكرات من النساء وان شدة الالتئام بين النوعين انما تقع باحتياج الانثى لضعفها ورقتها الى عاصم من بأس الذكر ومانع من شوكته ولكن هذا الفرق بين الرجل والمرأة كائن بطبيعة الحال لا يحتاج الى وسيلة توجده وهو ما دام على الفطرة التي جبله الله عليها حسن صالح فاذا تكلفت المربيات تزكيته وغالين في تجسيمه عاد داعياً الى النفور لا جالباً للالفة ولعل ذا حجة للمربيات يقول أنترك الغادات تعتاد كل عادة تناقض الرقة

---

(١) تقتلت الغادة في مشيها تقلبت وتثنت وتكسرت

وتخالف الخفر (زلت حجته) فاولئك الصبية يدأبون في ألعابهم زمن الدراسة ثم يتركون المدارس فلا تراهم يلعبون (النطة) في الطريق ولا (البلي) في غرف المجالسة بل ترى أحدهم متى بلغ عصر الشبيبة احتقر ألعاب الطفولة واحتشم ان يرى وهو بحالة الغلمان فاذا كانت الذكور وهم أقل مراعاة للظواهر ترفعهم النخوة عن تعاطي ألعاب الطفولة فلم لا تكون النساء اجل نفوراً مما يشين كمالهن وأمعن صدفة عما يضر بتورعهن . وما أحمق المربية التي تظن ان طباع الانثى لا تقوّم الا بتشديدها وتضييقها وقد نرى من يشعر بضرر ذلك التصنع الذي ذكرناه فيلتجأ منه الى خطة أمكن في التصنع وهي خطة التمرينات الجسدية (الجمناستيك) أعني الالعاب المعهودة التي تعمل على آلات مخصوصة وتجري على أصول موضوعة أما كون هذه الخطة أفضل من لا شيء فهو أمر لا ريب فيه وأما كونها خلفاً محموداً من اللعب والمرح فباطل لسببين عظيمين أولهما ان التمرينات الجسدية لما كانت أقل تنوعاً مما تأتيه البنات من ألعابهن كانت ملية ان لا تسوي بين كافة أوصال البدن في قسمة الحركات عليها فتوسع بعض الاعضاء جهداً وتهمل البعض فيسرع النماء في المجهود ويبطأ في المهمل وتسوء بين الاوصال نسبة مقاديرها وثانيهما ان التمرينات الجسدية لما كانت تجري على قواعد مرسومة وتشبه سائر ما تكلف به البنات من الاعمال كانت خالية من اللذة الكائنة في الالعاب المألوفة عند الغادات وحقيقة ان تحدث الملل والسآمة وقد لا تفطن المربيات الى التفاوت بين تأثير الملل وتأثير الارتياح في الاجسام ولا أحسبهن يعلمن ان هناك تفاوتاً وتلك زلة لا تغفر فليعلمن من الآن فصاعداً ان الحبرة والابتهاج فيهما تنبيه شديد وتحريك للاعضاء الحيوية وكفاك دليلاً على صحة ذلك ما تشاهد في حالة المريض من

التحسن لورود بشرى أو لزيارة صديق حميم وما يوصي به الاطباء من احاطة العليل المضنى بلفيف من كل مفراح مشبوب الفكاهة جياش المؤانسة ثم أذكر أي فائدة للصحة فيما يجلب تغيير المناظر على النفس من الحبور والجذل والحقيقة ان الصفاء أنجع دواء وذلك ان ورود الفرح على النفس يحث حركة الدم فيسهل على كل عضو حي عمله فيزيد في صحة الصحيح ويهدي العافية لفاقدها وكذلك يثبت فضل الالعاب المألوفة وتقصير التمرينات الموضوعة . وقصارى القول ان التمرينات الجسدية خير من لا شيء وانها لا تقوم وحدها بضمان العافية وكمال النماء وانه يحسن ان تقرن الى الالعاب المألوفة التي تنزع اليها طبيعة الاطفال وان هذه الالعاب المألوفة ضرورية لصلاح صحة البنين والبنات وان من ينكر فائدة هذه الالعاب الطبيعية جاحد فضل الحكمة الالهية التي أمدت الطبيعة البشرية بكل ما يضمن قضاء حاجاتها

بقي علينا بحث أحسبه أحوج الى التدبر والتصفح مما سبق . يزعم الكثيرون ان غلمان الطبقة المتربية وشبانهم أضأل أجساماً وأضعف قوّة من رجالها وكهولها ولقد خطر ببالنا عند أول سماعنا هذه الكلمة انها من ضمن الاباطيل التي يختلقها الجمهور تمجيداً للعصور السالفة وبخساً للعصر الحالي سنة الله في عباده فرفضناها ونبذناها مع أمثالها من الاكاذيب مثل قولهم ان فرسان العصور السوالف كانوا أعظم خلقاً من نظرائهم الآن فظهر كذب هذا الزعم عند ما قسنا الدروع القديمة فوجدناها أصغر من الحديثة ومثل قولهم ان القدماء كانوا أطول أعماراً منا فكذب ذلك السجلات القديمة ولكن اعتقادنا كذب الزعم الذي نحن الآن بصدده لم يلبث ان أزاحه البحث والفحص فقد أنعمنا النظر في الطبقات غير الطبقة الصانعة فرأينا ان الكثير من الاحداث لا يبلغون آباءهم طولاً ولا

ضخامة حاسبين ما بين الفريقين من فرق السن ورأينا الصلع العاجل في العصر الحاضر أعم منه في الغابر وسقوط الاسنان كذلك أكثر والقوّة أوهن والحدة أبلد وأدهشنا ان الاجيال الغابرة على فساد نظام معيشتهم أضلع بالخطوب وأنهض بالاثقال من الجيل الحاضر على استواء أمر المعيشة الآن والتئام نظامه. فلقد كان آباؤنا على ادمانهم الشرب واخلالهم بمواعيد الاكل والنوم وعدم اكتراثهم لاستنشاق خالص الهواء وقلة اهتمامهم بالنظافة أقوى منا على الاعمال وأصح أبدانا وأطول آجالا . ثم ترانا مع كثرة اهتمامنا بمراعاة قواعد الصحة كالعناية بالمأكل والقصد في المشرب ومراعاة جودة الهواء ووفرته والالتفات الى نظافة البدن والمنزل والاثاث والاكثار من التنزه في الارياف لا يزال منا الظالع تحت عبئه والمبهور تحت ثقله والرازح والحسير والطريح والصريع فاعجب بمانتفين الى اصلاح صحاتهم وهم مع ذلك مرضى ضعاف ومهملين صحاتهم وهم أصح وأقوى فكيف كان ذلك . لا ريب ان اكبر أسبابه هو جهد الذهن حتى يبلغ به أقصى غاية الاعياء . فلقد نرى الآباء في هذا العصر تفضي بهم المباراة في كسب المال والمفاخرة في التنعم بلذات الترف الى مواصلة العمل من لدن شروق الشمس الى غروبها وربما سهروا ليلهم موالاة للكدح لا يفرقون بين العمل والعمل برياضة ولا يجعلون لانفسهم فسحة تستريح فيها تلك الاذهان المكدودة والاجسام المنهوكة التي يورثونها أبناءهم في أعمالهم ثم يضطرهم ما يكابدون من عناء الكد الى تكليف أولادهم ما لا يطاق من مواد الدراسة رجاء ان يسبقوا الى نيل الدرجات أوانهم فيكونوا لهم أعوانا فاذا عنف بالصبية في سبل التعليم أعياهم النصب ونال منهم الكلال فهم اما هالك في سبيله واما عاجز عن بلوغ مداه وهنا وضعفا واما بالغ غايته نضوا مهزولا لا يؤمل مدى الدهر لقوّته رجعة ولا

لشوكته عودة. على ان القارئ لو اطلع على نظام أوقات الطلبة في بعض المدارس فرأى مقدار ما يصرف في مذاكرة الدروس وما يجعل للاستراحة لما عجب ان يصيب الطلبة من ذلك النظام الضرر والاذى . بل عجب ان يبقوا احياء مع تلك الخطة الفاحشة الجور . وهاك صورة نظام الاوقات لاحدى مدارس البنات

ساعة	
٩	للنوم
٣½	تقضى في المدرسة أو في البيت تمضيها الصغيرات في اللعب والكبيرات في العمل
١½	في الاكل
٩	في المدرسة للاشغال وتلقي الدروس
١	رياضة في الفضاء لا تتعدى المشي ولا تكون الا في الصحو وقلما تعاطى البنات هذه الرياضة الا وكتب الدراسة في أيديهنّ
٢٤	

وماذا كانت نتيجة هذا النظام المدهش كانت عاقبته لاشك الضعف واصفرار اللون والكآبة وكسوف البال وقلة الصحة وزد على ذلك انا لم نجد فتاة من هؤلاء اللاتي تعلمن بتلك المدرسة الا وقد بليت بنحافة الجسم وصغر الخلق

واليك صورة نظام الأوقات في احدى مدارس المعلمين

الساعة السادسة صباحاً يهب الطلبة من النوم

من ٧ الى ٨ « اجتماع الطلبة ومذاكرة

« ٨ « ٩ « تلاوة الانجيل وصلاة وفطور

« ٩ « ١٢ « مذاكرة

من ١٢ الى ١½ مساء   فسحة (تسمية) وفي الحقيقة وقت يصرف في المذاكرة

« ١½ « ٢ «   غداء لا يتجاوز من الاكل ٢٠ دقيقة

« ٢ « ٥ «   مذاكرة

« ٥ « ٦ «   شرب شاي واستراحة

« ٦ « ٨½ «   مذاكرة

الساعة العاشرة «   يذهبون الى غرف النوم

ومن ذلك التقسيم ترى ان الطلبة يمضون في المذاكرة ½ ١٠ ساعة و½ ١ في الرياضة وقلما يصرفون مدة الرياضة الا في موالاة المذاكرة ويا ليتهم يقتصرون على ذلك فلم ينتبه غالبهم في الساعة الرابعة صباحاً فيبكرون الى كتبهم وعلى كل ذلك يشجعهم الاساتذة الذين يرون صيتهم وذكرهم رهناً بما بلغ تلاميذهم من العلم فيضطر الطلبة الى قضاء ١٢ أو ١٣ ساعة من اليوم في أعمال أذهانهم

أما عاقبة ذلك النظام المنكر من الوبال والخسارة فكما يقدر القارئ وقد بين أحد أفراد هذه المدرسة ما شاهد من مضار تلك الخطة في أحوال الطلبة فقال لا يلبث الطالب الجديد أن يتبدل باشراق ديباجته شحوباً و بصحته مرضاً و بمضاء شهوته للطعام كلالاً ومن الطلبة من يذهب فريسة الخطة الملعونة

فأي شيء أعجب من أن يوجد مثل ذلك النظام في وقتنا هذا وأن يقبله أولو الالباب من العلماء وأي ظلم وجور بل وأي عمى وجهل في أن يفرض القائمون بالتعليم على الطلبة الضعاف من مواد العلوم في زمن قصير ما لا يستطيعون درسه في أضعاف الزمن المحدد له وانما تبغي الاساتذة بذلك أن يبلغوا بأذهان طلبتهم الأمد البعيد في الزمن القريب ولم يعلموا أن للذهن طاقة محدودة اذا جشم ما فوقها أدى ذلك الى ضعف في سائر قوى الجسم فان للطبيعة البشرية

حساب دقيق لا يخدعها فيه خادع فتى أجبرتها أن تبذل في أحد أعمالها فوق ما قدرت له من الجهد اعتدته ظلماً منك وأنصفت نفسها بتقصيرها في عمل آخر فاذا تركتها وشأنها تبني العقل والجسم بحسب ما أوتيت من التدبير فأجج بأن يجري أمرها على السنن الاقوم والمنهج الاوضح وكيف يرجو الذي يكلف الطبيعة البشرية في أحد الاعمال فوق مجهودها أن تتقن سائر أعمالها مع العلم بأن قوة الحياة في الانسان محصورة وحاجات الجسم اليها متعددة فبعض هذه القوة مبذول في الهضم وبعضها في تعويض ما تفقده حركة الاوصال والبعض ينفق في اعاضة ما يضيعه اشتغال الذهن وغير هذه مصروف في انماء البدن على ان ما ذكرنا من ضرورة تقصير الطبيعة البشرية في سائر الواجبات اذا بذلت أكثر من وسعها في واجب هو أمر يثبته الحس فكلنا يعلم أن الهضم الشديد يوجب فتوراً في الذهن قلما لا يجلب النوم وان كد الاوصال يستدعي استرخاء في الفكر وان الفلاحين الذين يجهدون أجسامهم ليس لهم لوذعية ولا اتقاد ذكاء وان نهك البدن عقب الغذاء يوقف الهضم وربما سئل سائل فقال اذا كانت هذه هي مضار الاغراق في كد الذهن فما هي المضار التي تحدثها أدنى زيادة فيما حددت الطبيعة للذهن من الحركة فنقول من هذه المضار نقص خفيف عما يجب أن يبلغ البدن من الحجم كانحطاط القامة عن الغاية التي كان ينبغي أن تنال أو نقص عن الجسامة التي كان الواجب أن يصل اليها أو رداءة في النسيج تنكب بجوهر الجسم عن بلوغ ما يجب أن يكون له من الجودة وكيف لا يحل بالبدن أحد هذه المضار أو بعضها أو كلها وقد فقد من نصيبه من الدم ما اغتاله الذهن لينفقه في كده وكدحه . فذهب في سبيل الذهن ما كان يذهب في بناء البدن واذا ثبت ذلك بقي علينا أن نبحث فيما اذا كان ما اكتسبه الذهن يفي بما فقده الجسم

أما شدة جهد الذهن فمضرة سواء بالبدن والدماغ واليك تبيان ضررها بالدماغ فاعلم أن دماغ الطفل يزيد على مرّ الزمن زيادتين واحدة في الحجم وأخرى في التكوين والتصوير واربا[1] احدى الزيادتين ينقص من الاخرى واستواء الدماغ وصلاحه لا يكون الا بتوازن الزيادتين وهذا التوازن انما يكون بترك الدماغ يتصرف في عمله على هينة منه بلا قسر ولا اعتناف فلا يعطى من مواد العلم الا ما يطيق تناوله وهوأودع[2] ما يكون فاذا أقحم المصاعب من العلم وهو بعد لم يقوَ على اقتحامها وعنف به في وعورها أسرع ذلك في تكوين الدماغ وتصويره حتى يكاد يبلغ في الشكل والهيئة دماغ الكبير ولكنه يعوق من ازدياد نمائه وقوّته ولو رفق به وصلح تدبيره نضج في استواء وأدرك في تعادل وجمع في الاوان المحدد بين القوة والنمو وكمال التركيب وتلك قاعدة بينة في حال نوابغ الاطفال الذين يفوتون في السن الصغيرة شأو الغلمان ويغلبونهم فطنة ويبهرونهم ذكاءً فاذا كبروا كذبوا ظنون المتوسمين وخيبوا آمالهم وهذا أيضاً حال النساء فان أذهان الصغيرات منهنّ بطبيعتها أسرع الى التكون وكمال التركيب من أذهان الذكور وهذا كما قدمنا مجحف بالنمو وازدياد القوة فاذا قارنت بين الغلام والفتاة المتحدين سناً رأيت الانثى أكمل عقلاً وأذكى لباً ثم يقف ذهنها عند حد ويتمادى ذهن الغلام في النماء والتكوين فلا يمر زمن حتى يشرك الفتاة في استيفاء التكوين وينفرد بالقوة والعظم

أما ما يصيب الجسم من الضرر فابرح وافتك كضعف الاعضاء وكلال القوى ومرض الشعور وقد ثبت من التجارب الفسيولوجية ما يجلب كد الذهن على الهضم والدورة الدموية من المضار على ان ذلك مما يثبته الحس دون الفحص

---

(١) زيادة (٢) اكثر ما يكون استراحة

فليس أحد الا وقد أحس ما يعرو القلب من الخفقان اذا عبثت بالذهن عوابث الامل أو حفزته حوافز الروع أو زلزلت به زلازل الغضب أو هاجته هوائج الفرح وليس هناك من يجهل أن اهتياج الذهن مقرون أيضاً باضطراب المعدة حتى تقذف ما فيها أو تجد في هضمه الجهد الجهيد فاذا اهتاج الذهن والمعدة خالية زهدت في الطعام. هذا ما يحدث من اهتياج الذهن على ان كدّ الذهن بالتفكير أو الدرس وان كان لا يهيج الذهن كما تهيجه تلك العوامل التي ذكرناها فهو على أي حال محدث من نتائجها على حسب مقداره فبينا تجد النتائج عند هذه العوامل تجمع بين الشدة وسرعة الزوال تراها في الكد المتواصل أهون ولكنها أثبت وأمكن وهي في الحالة الاخيرة تكون اما دوام خفقان في القلب أو ضعف في النبض أو نقص في عدد الضربات وقد يحدث الضرر في المعدة فيصيبها الامساك حتى تسأم الحياة وربما يحل المرض في القلب والمعدة ويكون نوم المصاب في الغالب غرارًا ولا يخلو العليل من فتور في الذهن. فاسأل من يكلف الغلمان من الدرس ما لا طاقة لهم به كيف ترجى الصحة والعافية لمن كلت شهوته واختلت معدته وبطأت دورته. ولا ينتظر من الاعضاء الحيوية أن تحسن أداء واجباتها الا ولها وفرة من الدم الجيد والا فلا عصب يبلغ كماله ولا عضل ولا حجاب ولا أي عضو آخر وكذلك لا تحسن الغدد الافراز ولا يجيد عمله عضو حيوي فانظر أي ضرر هناك في أن تبذل المعدة لجسم الطفل الآخذ في النمو مقدارًا ناقصاً من دم رديء يزيده رداءة تبليد القلب في نفثه وتباطئه في دفعه

وهذه الخطة ناكبة عن الهدى كيفما تأملتها. ومن أي الوجوه تدبرتها. فهي جائرة من حيث استفادة المعلومات. لان العقل مثل الجسم له حد معين

في اكتساب المعارف . فاذا أرهقته وراكمت عليه من الحقائق أكثر مما يستطيع تناوله رفض الذهن هذه الحقائق . وبدل ان يحوك منها نسيجاً ذهنياً تعظم به ملكات العقل فان هذه الحقائق لا تلبث بعد أداء الامتحان أن تسقط من الذاكرة. والخطة جائرة كذلك من حيث أن تجعل الدراسة كريهة. والسبب في ذلك أما ما يحدثه كد الذهن المتواصل من الذكر [١] الاليمة المضاضة [٢] فيما بعد . وأما ما ينشأ عن نهك الذهن من مرض الملكات كل ذلك يبغض الى الانسان الدراسة وكل ما يتعلق بها فتراه اذا تخرج من المدرسة العليا لم يدم المذاكرة والاطلاع فيرتقي في معارج العلم بل يهجر الدراسة ويأخذ في الانحطاط حتى يسفل الى درك غير مرضي . والخطة حائدة عن الصواب كذلك من حيث انها لا ترى للدراسة غاية سوى تحصيل المعلومات ناسية أن أهم من ذلك وأعظم هو تنظيم المعلومات في الذهن حتى تصير كالبنيان المنضود المرصوف يقبل التعلية والتشريف [٣] لا كالانقاض المختلطة المشوشة. ولا فائدة في المعلومات التي تخزن في الذهن كشحم ذهني . بل الفائدة في تلك التي تحوّل الى عضلات ذهنية . على أن ضلال الخطة أعظم مما ذكرنا . وذلك انها متلفة للصحة التي هي قوام الذهن وسلاحه في معترك الحياة. فهلا علم أولئك المشغوفون بتربية عقول أبنائهم تاركين الابدان وشأنها أن الفوز في مقتتل الحياة أكثر توقفاً على نشاط البدن منه على وفرة المعارف ؟ هلا ذكر هؤلاء القاضون على سعادة الابناء ان في قوّة الارادة والنشاط الجم الناشئين عن وفرة الصحة عوض عن نقص المعلومات وضعف التربية ؟ وأنه اذا اجمع الى هذين التربية اللائقة التي قد يحصل عليها دون أن تضحي في سبيلها صحة البدن ضمن الاباء لابنائهم

---

(١) جمع ذكرى (٢) الاليمة (٣) شرف البناء يعني زاد في اعلاه وكذلك التعلية

الفوز على الضعاف الذين أوهن الافراط في الدرس قواهم ولو كان هؤلاء الضعاف آيات في العلم والادب؟ وما غناء الذهن الكبير الكامل التركيب اذا كان الجسم واهناً عليلاً . وما غناء الآلة البخارية الضخمة الدقيقة الصنعة اذا كان الوطيس قد فترت ناره . والبخار قد ضعف تياره . وهب أن الآخذ بتلك الخطة قد بلغ من الحياة مآربه فأي فائدة في الجاه والثروة اذا اكتنف الانسان الامراض واعتوره الاوصاب ؟ وان عيشة تصيبها العلل والادواء لجديرة بالنصب والشقاء مهما كانت من السعة والخصب والجاه

على ان ضرر الخطة أشنع في النساء منه في الرجال لقلة مباشرتهنّ ما يتعاطاه الذكور من اللعب الذي يفل من حد العمل الذهني ويرد من غلوائه وعلائم فتك الاعمال الذهنية بالاناث بينة في اصفرار ألوانهنّ وانخفاض صدورهنّ ونحول أبدانهنّ والعجب الاعجب ان يكون قصد الامهات والمربيات من ايذاء أبدان بناتهنّ في سبيل ملء أذهانهنّ بالمواد العلمية انما هو تزيينهنّ وتحليتهنّ حتى يرغب فيهنّ الرجال وخاب ذلك قصداً اذ ليست كثرة العلم في المرأة مما يسبي الرجل ويزدهيه وانما يشغف فؤاد الذكر حسن صورة الانثى وصحة عقلها وكثرة مرحها وأين الذي أسرته احدى الفتيات بسعة علمها في فن التاريخ أو خلبته أخرى بمعرفتها لغة ايطاليا أو حبلته[1] ثالثة باطلاعها على لسان الالمان ولكن كم أبكت العيون الضاحكة وأسقمت الخدود المضرجة وكم عطفت القدود الرويات الصوادف وكم شغف القلوب أنس النساء ومراحهنّ وحلاوة مزاحهنّ وكل ما ذكرنا في النساء من دواعي الحب والكلف نتيجة وفرة الصحة وكمال العافية . على ان الملاحة وحدها قد تطوّح بالفؤاد الى أبعد غايات الشغف

---

(١) أوقعته في الحبالة أي الشرك

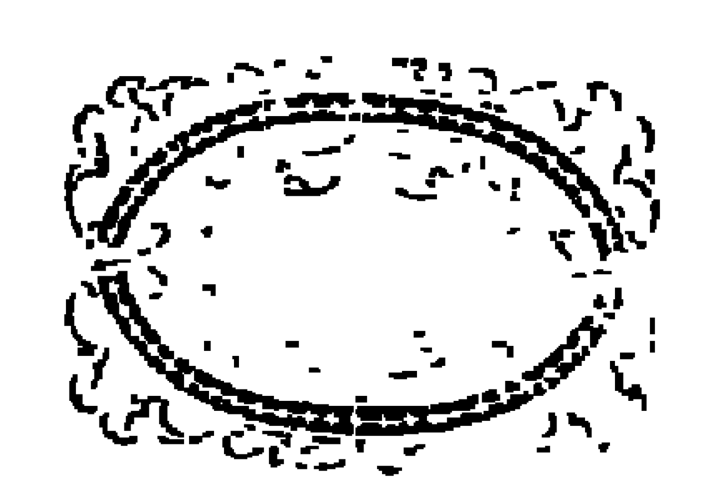
فتكسف اذ ذاك ما عداها من المحاسن ولكنا ما علمنا قط أن رجلا عاقت فؤاده كثرة معلومات امرأة دون صفاتها النفسية والجسمية وسبب ذلك أن أعظم بواعث الحب هو جمال الخلق ثم يليه الظرف وخفة الروح ودونها حلى الذهن وزخارفه على أن هذه المزايا الاخيرة تفيدها الفطرة اكثر مما تكسبها العلوم والمعارف فسرعة الخاطر وحدة الذكاء وصحة النظر تهبها الطبيعة اكثر مما تفيدها العلوم على أن لله سبحانه وتعالى في جعل سلطان الملاحة على القلوب أقدر وفي النفوس أنفذ حكمة بالغة وذلك أن ولوع الذكر بجمال خلق الانثى يوجب كثرة العناية بابدان النساء حتى تصبح من النعمة والصحة بحيث تستميل القلوب وتجلب الارواح وذلك ضروري لدوام النسل. فأما ايذاء أبدان الفتيات بحملهن على الصعب من العلوم فضعف للنسل ثم تكون ذرية النساء الضعيفات من الوهن بحيث تنقرض بعد جيلين أو ثلاثة ذلك خلاف ما ينغص عيش هؤلاء البائسات من ألم المرض وضيق الهم حتى يسأمن الحياة . فتبت هذه الخطة وتب أهلها


هذه هي الآفات التي يبتلي الآباء بها أبناءهم باهمالهم مراعاة صحاتهم حمقاً وجهلاً أو تمادياً في الشر بعد ما وضح لهم اليقين وتوانياً عن قضاء حوائج الابناء وجنوحاً الى الراحة وميلاً الى الدعة ثم تراهم مع ذلك يحرصون على أداء ما فرضت عليهم شرائع البلاد فكيف أخرجوا مراعاة الصحة من عداد سائر الواجبات وهي من أهمها وأخطرها . على أني قائل بملء فمي ومناد بأرفع صوتي انه لا يستقيم أمر الصحة حتى تعتبر مراعاتها من أعظم الواجبات فلا يطلق(١) لاحد ما أن يتصرف في جسمه حسب ما شاء كما يتصرف المولى في عبده فيقول الرجل هذا جسمي لست مؤذياً سواي بضرره فان ذلك كذب وافتراء لان مرض جسمه

(١) يصرح

عائد بالضرر على غيره اذ كان لا يحسن أداء اعماله الا وهو بخير حال من الصحة فاذا مرض قصر في أداء أعماله وما أعماله الا واجبات عليه للنوع البشري وكذلك اذا كان الرجل ضعيفاً عليلاً أورث ضعفه بنيه فجنى عليهم وعلى سائر البشر شرّ جناية

فلينظر الى ذلك كل غافل وليلتفت اليه كل متغافل وليتمسك به كل مقصر وليعده الناس فرضاً يجب على تاركه العقاب ويثبت لمؤديه الثواب






Bibliotheca Alexandrina
0383143